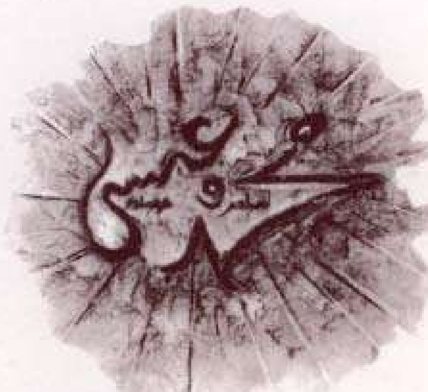
الإمام الشيخ محمد عبده



الإسلام والنصرانية

مع العِلم وَالمدنيّة

طريق المطار - شارع سيد هادي القنالي
بناية حلبي عويدات
تلفون: ٨٣٣٩٨٩ - ص . ب: ١٤٥٦٣٦

الطبعة الثالثة

١٩٨٨

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ « ١٦ : ١٢٥ ».

ظهرت في العالم مدنيات ثم خفيت ، ودُرست فيها العلوم والفنون ثم دَرست ، وصلحت أحوال الأناسيّ ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والأمم في تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء ، حتى استعد المجموع في جملته للرقيِّ العام ، فمنحه الله تعالى دين الإسلام .

جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه أو الجهات ـ من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة

المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله ديناً قيماً ، وعلماً محكماً ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير به وجه الأرض ، ونفخ في الانسان روحاً جديداً أعطاه من جراثيم الحياة ما لا يقبل الفناء ، ما دامت الأرض والسماء[1] .

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها ، فأحيا الأرض بعد موتها ، ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه انقاضاً من خرائب جيرانهم ، فغيض الماء ، وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى ، ولم يلبث بعد ما غاض أن فاض منه شيءٌ في مواضع أخرى ، فانتفع أهلها به وحافظوا عليه ، ولكن الأكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم ، كما

---

(١) بينا أن أركان الاصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم في مقالات متعددة نشرناها في مجلدات المنار . كمقالات « الاصلاح الديني » والمقالة التي فاتحتها (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ومقالات « سلطة مشيخة الطريق الروحية » وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين : السياسية ، والدينية ، وجعل الناس سواء . وكل هذا في المجلد الأول ، وكمقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » في المجلد الثاني ومقالة « إعادة مجد الاسلام » ومقالات « مدنية العرب » في المجلد ٣ الخ ، وكمقالات « الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام » في المجلد الرابع .

أن أكثر أهل الينبوع المنتسبين إليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذي تفجر في تلك المواضع ، فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة ، هو من ماء ينبوعهم ، وأنهم لو أزالوا عنه تلك الأنقاض لفاض ورجع إليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن ما كان إذا هم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للاحياء .

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الأمم الغربية الحية الراقية : أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح ، الذي هم فيه ، وهم يقولون إن الاسلام عقبة في طريق كل إصلاح ، ويقولون للمسلمين : إن ماءنا صاف نقي يحيي البلاد والعباد ، وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف يستوي الماءان ، وقد اختلف الأثران ؟ منهم من يقول هذا معتقداً ، ومنهم من يقول منتقداً ، ونحن ساكتون عنهم لأننا جاهلون بأنفسنا وبهم .

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحسه (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى) فيرجعوا إلى أصول دينهم ، وهو الأولى بهم والأحرى . فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان لأن يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج إلى ربهم ، إذ

ظهـر فيهم علماء ربانيـون ، وأطباء روحـانيـون ، يعـرِّفـونهم حقيقة الداء ، ويصفون لهم نقي الدواء ، ومـا طلب الانسان بلسان استعداده شيئاً من مولاه ، إلا تفضـل عليه بـه وأعطاه إياه[1] .

لهذا سخر الله للمسلمين حكيماً من الأعـلام ، وإمامـاً من أئمـة الاسـلام ، يطب لـدائهم ، ويجمـع مـا تفـرق من آرائهم ، وقـد كتب في هـذه الأيـام كتابـة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة إلى الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها عـلى أحد كتّـاب المسيحيين قـوله : إن المسيحيـة كانت أكـثر تسامحاً مع العلم من الاسلام ، وإن الاسـلام أكثر اضـطهاداً للعلم والفلسفـة من النصرانيـة . وبيَّن في آخـر ما كتبـه حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم ، فبـرأ الاســلام وسلفـه من المـلام ، ولكنـه لـم يبرىء المسلمـين المتأخرين ، بل دلهم على حقيقـة دائهم ، وهداهم إلى طـريقة معـالجته والخـروج منه بـاذن الله تعـالى . ولعمـري إنـه أنـذر فأعذر ، وبرىء من وعيد الكتمان ﴿فمن اهتدى فإنما يهتـدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ .

(١) راجع مقالة « الاصلاح والاسعاد ، على قدر الاستعداد » في المجلد الـرابع من المنار .

والكاتب المسيحيّ هو رصيفنا الفاضل صاحب « مجلة الجامعة » وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة إلى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . فساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ، ولمسألتين أخريين أهمهما عزوإنكار الأسباب إلى علماء الكلام ، والثانية ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الأكبر في الأندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين ، ومن المقابلة بين الديانتين ، ونشرنا ذلك كله في « المنار » .

فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لا يكاد يفيد إلا الخواص من العلماء والمتكلمين . وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص ، بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضياء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت أن أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه[1] واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت ، وعلى الله توكلت .

---

(١) قد بدا لنا أن نضيف إلى هذه الطبعة ما رد به الأستاذ رحمه الله تعالى على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد أيضاً لما بيناه في مقدمتها .

وأحب أن يكـون حظ كل مسلم من هـذا الكتـاب أن يجتهد في الأخذ بأصول دينه المشروحة فيه ، وأن يقتدي بكرام سلفـه في جدهم واجتهـادهم وسيرتهم مـع المخـالفـين لهم في الاعتقاد ، ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيرَي الدنيا والآخرة ، وأن سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأن غيرنا ليس كذلك ، لأن كل هذا حجة علينا لا لنا ، وهو لا يغني عنا شيئاً في دنيانا ولا في آخرتنا ﴿ ١٩ : ١٧ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولـو الألباب ﴾.

محمد رشيد رضا

منشىء مجلة المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

في النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية ، في النصرانية

قال الأستاذ الامام الحكيم رحمه الله وأثابه :

ذكرت الجامعة ـ في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد ـ أن للناس آراء في : هل الدين المسيحي أوسع صدراً في احتماله مجاورة العلم والفلسفة ، أو أن الدين الاسلامي هو الأرحب خلقاً ، والأوسع حلماً من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون إذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ؟ وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي : أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر ، وابن رشد لم يقل شيئاً سوى أنه قرر ما قال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة

حلم الاسلام : أن الاسلام لم يحكم بإحراق أحد لمجرد الزيغ في عقيدته ، وكم حكمت المسيحية بذلك .

ثم جعلت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم وقالت «فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية ، فأضعفت أمتهم ، وفرقت كلمتهم ؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة » أهـ .

ثم قالت الجامعة : إنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين (الأول) في قولها « إنا نرى أن السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع ، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً ، وبناء على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية ، فإن الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي ، وذلك بكلمة واحدة «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، وبناء على ذلك فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا

تركت للسلطة الدينية مجالاً للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قتلهم ، وسقي الأرض بدمائهم البريئة ، فإنها تجني جناية هائلة على الانسانية ، وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك ، إذا بدا منها نقص ، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها ، لأنه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » .

والفصل الثاني في قولها : « إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي . ولذلك نما غرسهما في تربة أوروبا وأينع ، وأثمر التمدن الحديث ، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي . وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً » ا هـ .

الجواب الاجمالي

وإني أعجل في الجواب بما يلاقي هذين الحكمين إجمالا : أما الأول فإن كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال في سورة البقرة ﴿ لا إكراه في

الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ وقال في سورة الكهف ﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

وأما الثاني : فأسأل الجامعة في جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول ما تقول وهي في أرض مصر ، ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى ؟ فإذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأمريكان وهي مدارس دينية خصوصاً مدارس الجزويت . فهل يمكنني أن أجد طالباً واحداً مسيحياً في مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لا نجد إلا قليلا منهم في مدارس الحكومة ، لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع أن والداً اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من

تسامح الاسلام مع العلم اليوم ؟[1] .

لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد في بلاده طائفتان تعد إحداهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الاسلام ، وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله ، حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ، ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة ، لا تؤكل ذبائح أفرادهما، ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات ، وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم ، ومن العلماء من قال : لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلام في أوج القوة ، ودخلوا في حكم الأتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم ، وكانت عساكرهم على أسوار فيينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم ، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم ،

(١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى في الجرائد الاسلامية إلا نادراً .

وهم جيرانهم وتحت أيديهم ، وفي مكنتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟.

غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه ، وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة في قولها : « هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكميها إلا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت في كلامها بأربعة أمور ، آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها (الأول) أن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأخرى (الثاني) أن من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) أن طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر

لأهله التسامح مع العلم (الرابع) أن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوروبيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة ، وأبتدىء منها بالثاني لقلة الكلام عليه .

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة ، مع الاختلاف العظيم بينهما ، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة ، مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة ـ كما لم يسمع بأن الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج ، كما وقع من القرامطة وغيرهم ، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة ، وهي بالسياسة أشبه ، بل هي أصل السياسة .

نعم وقعت حروب في الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروباً سياسية ، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين[1] .

وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم ، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم ، وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم ، وأكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين

(١) لعل الأولى أن يقال : من أمراء الوهابيين ، وقد وقع بعد وفاة الأستاذ بسنين بين ابن السعود أمير الوهابيين العام وبين الدولة صلح اعترفت له الدولة فيه بالاستقلال التام مع نوع من الارتباط بها .

وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، وساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم .

ما لنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي عليّ أن أقول ولا أخشى منازعاً : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها ، على أن هذا الأمر الذي جاءت به الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة ، لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين ، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا .

هل أذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين ؟ هل أذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا ؟ بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسود لها لباس الانسانية وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها

وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف .

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة ، لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . وإنني لا أستدل على رعاية الاسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم ، وإنما أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين ، وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم .

قال المستر درابر ، أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأميركان : « إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى المناصب في الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنية » (هو يوحنا بن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : « كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء

إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الأكبر المأمون : الحكماء هم صفوة الله من خلقه ، ونخبته من عباده ، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة ، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة ، هم ضياء العالم ، وهم واضعو قوانينه ، ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » .

وقال في موضع آخر : «إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » .

ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس ، وبنوا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب ، لأن هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد .

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء

جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور ، كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى ، فأشفق عليه المنصور ، وأنفذ إليه بثلاث جوار حسان فردهن ، وقال : إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية ، فأعلى مكانته حتى على وزرائه ، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج إليه ماشياً يسأل عن حاله ، فاستأذنه الحكيم في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه ، فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله إذا مات في الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده ،فأشار إلى عيسى بن شهلاثا أحد تلاميذه فأخذه المنصور مكان جورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال رغائبه ، فشعر الخليفة بذلك فطرده .

ومن حظيَ عند المنصور : نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ، ثم كانت ذرية

مسلمة لأبي سهل ، وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة .

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم ، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عبارة .

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولّاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، طبية وغيرها ، وخدم الرشيد ومَن بعده إلى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ، ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع في بيت يوحنا ابن ماسويه .

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون ، أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور .

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ، ولما مات جزع عليه جزعاً شديداً ؛ وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى .

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان عليه درّاعة حرير رومية بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق ، حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل في عقله) يحتاج إلى الشد ؟[1] فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق درّاعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه فضحك المتوكل حتى استلقى .

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب ارسطو وغيره ، وامتحن المتوكل صدقه ، فظهرت له عزيمة لا تفل ، فأقطعه إقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى ، فكلفه بترجمة الكتب ، وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين في مجلس

---

(١) يعني بالشد هنا ايثاق المجنون بالحبل حتى لا يؤذي الناس .

الاساقفة بالحرمان من الكنيسة ، فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء .

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي : متىً بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفنناً في جميع العلوم العقلية ، أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت إليه الرئاسة في بغداد ، وكان من أهل ديرقنى ، ونشأ في مدرسة مار ماري ، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة . ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي ، انتهت إليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي .

ومنهم أبو الفرج ابن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصارى ببغداد ، وكان يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا . والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته ، وله كلام فيه .

ومن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قُرة الحرّاني الصابيء من طائفة الصابئين المعروفة وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور ، وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره . وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات . وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ، ولهم من المنزلة ما علمت ، ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة .

* * *

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات ، وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي ـ وهو بصري الأصل ـ ابن الأمير إسحاق الذي كان أميراً للمهدي والرشيد على الكوفة ، وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب

رسول الله ﷺ ، وكان عالماً بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى ، واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها ، وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد ، هل أنا في حاجة إلى ذكر بني موسى بن شاكر : محمد وأحمد والحسن : الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها ، وما كان لهم من المنزلة عند الأمراء والخلفاء ؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله إلى مسند الوزارة عند شمس الدولة ، أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان ؟

لا ريب أن أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم ، وقد قال ما لم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه ، وقبره اليوم مزار يرحل إليه في بلده .

أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد ، وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل عليّ أن التمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث ، قيل إنها حدثت للدين وما

حدثت له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء ، أو جهالة عمياء ، أو تأريث بعض السفهاء .

لا أطيل خوف الاملال وانتقل الآن إلى الأمر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق .

طبيعة الدين المسيحي

تمهيد

ظنت الجامعة أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان في طبيعته التسامح أما الدين الاسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها .

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم ، أو مع أية عقيدة تخالفها ، بل لا بد من بيان أركان الدين ، وأهم أصوله التي ترجع إليها جميع الفروع ، وعنها تصدر الآثار الحقيقية .

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض

عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله ، فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه .

وإنني أوجز القول في إيراد الأصول الأولى التي وردت في الأناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين ، وجاءت في كلام أئمتهم الأولين ، ثم إيراد ما جر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين .

الأصل الأول للنصرانية : الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي ، وأقوى عماد له هو خوارق العادات . تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الأناجيل يطول شرحه . ثم إنه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده ، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الاصحاح العاشر من إنجيل متّى وغيره ، إذا تتبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات

من أظهر الآيات . على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه ، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص .

زاد الانجيل على هذا أن الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون ، كما قال في الاصحاح السابع عشر من متى ١٠ « فالحق أقول لكم . لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفي الحادي عشر من مرقس ٢٣ : « لأني الحق أقول لكم : إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون ، فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم ».

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها، أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضاداً لهذا الأصل في أي زمن . وقد كان كل علم من

علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد لهذا الأصل ، ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمسببات ، لأن اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله ، فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه .

الأصل الثاني للنصرانية ـ سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ما ورد ١٦ : ١٩ من إنجيل متى « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات » وفي ١٨ : ١٨ منه « الحق أقول لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء . وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء » .

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك ، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها . فليس المعتقد

حراً في اعتقاده ، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله ، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه . فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة . وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالا .

الأصل الثالث للنصرانية ـ ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة . تجد هذا الأصل في الأناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الأولى عثرت به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة في الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من إنجيل متى . فمما جاء في السادس : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ ـ إلى أن قال ـ ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذه تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : ٢٣ « الحق أقول لكم :

إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله » وفي العاشر : « ٩ لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ » .

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ : ١٠ من متى) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل » .

ثم إن ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر في الأكوان ، فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر في أي علم ، والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ؟ لا ريب أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها ، وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده ، فإن عبادة الانجيل ليست شيئاً سوى الايمان والصلاة .

الأصل الرابع للنصرانية

الايمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع ، وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول ، لا يختلف فيه كاثوليك ، ولا أرثوذكس ، ولا بروتستانت ، وهو أن الايمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس أنسيلم « يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان . وهو الوسيلة الفردة إلى النجاة ، في حاجة إلى نظر العقل ، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية إلى الفهم[1] وعلى الميل الفطري إلى تصوير ما يتعلق به الاعتقاد . وإلا فمجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه ، فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلّي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم .

---

(١) إلى الفهم متعلق بالنزعة وهي النزوع والميل .

الأصل الخامس للنصرانية

ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد .

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس وهو أن الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج البشر إلى علمه ، سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية ، والآداب النفسية ، والأعمال البدنية ، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى ـ أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني أن يتمتع بها .

قال تيرتور ليان ـ وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة ـ : « إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ، ودليل صحة هذه الكتب قدمها ، وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين ، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها ، والزمن ناصر الحقيقة ، ثم تحقق النبوات التي وردت فيها » ثم قال « إن أساس كل علم (عندهم) هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ، وإن الله لم يقصر تعليمنا بوحي على الهداية إلى

الـدين فقط ، بل علمنـا بالـوحي كل مـا أراد أن نعلمـه من الكـون ، فالكتـاب المقدس يحتـوي من العرفـان على المقـدار الـذي قـدر للبشـر أن ينـالـوه » فجميـع مــا جـاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيهـا وتاريـخ الأمم - مما يجب تسليمه مهما ضارب العقـل أو خالف شـاهد الحس ، فعـلى الناس أن يؤمنـوا به أولاً ، ثم يجتهـدوا ثـانيـاً في حمـل أنفسهم على فهمه ، أي على تسليمه أيضاً كما ترى .

وقال بعض فضلائهم : إنه يمكن أن يؤخذ فن المعـادن بأكمله من الكتاب المقدس .

الأصل السادس للنصرانية

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين

ينتظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيـما أرى ، ذلك الأصل هـو الذي ورد في الاصحـاح العاشـر من إنجيل متى وهو : « ٣٤ لا تظنوا أني جئت لألقي سـلاماً عـلى الأرض ما جئت لألقي سلاماً بل سيفـاً ٣٥ فإني جئت لأفـرق الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الانسان أهل بيته » .

وقـد صرح في عـدة مواضـع من الانجيل أن الانحـلال

بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك ، وإن كان قد جاء في مواضع كثيرة أن الايمان وحده كاف في الخلاص ، غير أن روح الشدة التي جاءت في قوله : « لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً الخ » هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي ، وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر.

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهاراً للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما ، وحجروا على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان وتلك العبادة، ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك ، فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه ، بل إنما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة ، خوفاً من الزيغ عن الايمان السليم ـ البروتستانت رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب

المقدس ـ[1] ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظاً لذلك كله ، فإذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي إلى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة ، كما أفهمه المسيح بعمله ، على حسب ما ورد في الانجيل ، فقد قيل له : « ٤٧ أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي ؟ ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي » ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نبتاً ثم شجراً ، فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة .

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة : « إن الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن

---

(١) هذه جملة استدراكية معترضة لدفع اعتراض من يحتج على إطلاق الحكم بحصر فهم نصوص الدين في رؤساء الكنيسة ، وقد كسر هؤلاء الرؤساء البروتستانت بهذه البدعة وغيرها .

الغابر) فحصروا التعليم في الأديار ، ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر . وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره .

ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي[1] في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوروبا ولجأوا إلى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة !!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح ما في الكتاب ، وعندما أظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي إن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالأكل من الشجرة ، قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك .

---

(١) أي ظهر النجم ذو الذنب الذي ينسب إلى « هالي » ولا أدري كيف فاتني مراجعة الكاتب « رح » في تأنيث هذا النجم بوصفه بذات الذنب وكذا التعليق عليه بعده؟ .

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ، ثم إن تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الأسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة ، بعضه بالإحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ : إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الامبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة .

ثم جاء تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيباً مفوهاً له على الشعب سلطان بفصاحته . وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أخر ، خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يمكنني أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل ، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين ، فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دار ندوتها . وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار : يقول المؤرخ راوي

هـذه القصة : ولم يسـأل سيريـل عـما صنع بهيباتي ولم تنـظر الحكومة الرومانيـة فيما وقـع عليها ، ولعـل ذلك كـان أول ما تقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة ».

مـا من عقيدة ظهـرت في المسيحية وأريـد تقريـرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقـد سالت لهـا الدمـاء ، فلتراجـع التـاريخ لتتمثـل أرض مصر مصبـوغة بـدمـاء المسيحيـين من فريقين مختلفين عندما أريد تقـرير عبـادة العذراء واتخـاذها لله أمّاً. كان ذلك في طبيعة الـدين : أن من لم يتبع المسيـح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الاصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنـده ، وعند مـا جاء إلى بـطرس اعطاه الثمن وادخـر لنفسـه شيئـاً أخفـاه عنـه ، فـاطلع بـطرس عـلى حقيقـة الأمـر ، ووبـخ الـرجـل وتصـرف فيه بسلـب حيـاته من طـريق المعجـزة ، ثم جـاءت امرأته وكان لها اطلاع على مـا أخفى زوجها ولم تنهـه فوبخهـا بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً . فإذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسـه لم يقدمه هـدية للرسـل فكيف تكون الحيـاة من حقه إذا خـالف خلفاء الله في الأرض ونابذهم فيما يعتقدون ؟

قال البابا أنوثان الثالث ـ عند الكلام في مصادرة الذين

يخالفون العقيدة الكاثوليكية « لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منٌّ وإحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عداه إلى أولادهم ، وعد ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الاحسان عليهم ، لأنهم لا حق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤ هم .

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك ، وأخرى بجمع المجامع ، وثالثة بسفك الدماء ، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون ، وما كان يقع بين ملوك أوروبا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء الكنيسة ، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ ، وليس من موضوعنا الكلام فيه .

ولكني أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوروبا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس

واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية .

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص ، وهم وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة . فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة ، وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة .

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الأندلس فردوساً ، كما قال الفيلسوف الأميركاني ، وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية قال بطرس المحترم الشهير : إنه رأى كثيراً من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا ، وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة ، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب ـ نسخ وتذهيب وتجليد الخ ما قال .

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ، ثم

وجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم من أهالي أسبانيا ومن حملوه مما جاورها ثم انساب إلى العلم شيء مما سماه الأوروبيون فلسفة ابن رشد ، عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة .

قال دي رومنيس : إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، فجلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار ، وقيل في علة الحكم : إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا ، وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء .

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات ، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو

المجلس الذي عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً ، لم يعرض على المراقب ، أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومىء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين) .

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا . . انشئت هذه المحكمة الغربية بطلب الراهب توركماندا .

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، ففي مدة ١٨ سنة - من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ - حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير ، فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً ، بعقوبات مختلفة فنفذت ، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية .

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم ، وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة ، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : في المدن . في البيوت . في السراديب . في الأنفاق . في المخازن . في المطابخ . في المغارات . في الغابات وفي الحقول . فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين ، عملا بالقول الجليل « ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » .

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في

كنائسهم ، والأشراف في قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع في مصانعهم ، والعامة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا . وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) .

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته ، وما يظهره في أعماله بين أهله . فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فإذا سئل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد ، وهو من أهله حتى يعترف .

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا

نـظر حـولــه أو التفت وراءه أن رســول الشؤم يتبعــه ، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، ومن ورود الفكـرة العلميـة إليه ، وقـال باغليـاديس ما كـان يقولـه جميع النـاس لـذلـك العهــد : « يقـرب من المحـــال أن يكـون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه » .

حكمت هـذه المحكمة من يـوم نشأتهـا سنة ١٤٨١ إلى سنـة ١٨٠٨ على ثـلاثمائـة وأربعين ألف نسمـة ، منهم نحـو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء .

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه مـاء العلم والحرية في أوروبا على زعم القسوس ، وكان ابن رشد أستاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود ، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ، ثم هـو مع ذلـك مسلم ، صب غضب الكنيسـة عـلى اليهـود والمسلمـين معاً ، فصـدر الأمر في ٣٠ مـارس (آذار) ١٤٩٢ بـأن كل يهـودي لم يقبل المعمـودية في أي سن كـان وعـلى أي حال كان ، يجب أن يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجـع منهم إلى هذه البـلاد عوقب بـالقتل وأبيـح لهم أن يبيعـوا ما يملكـون من عقار ومنقـول بشرط أن لا يـأخـذوا في

الثمن ذهباً ولا فضة ، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعني أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي تم في يوليو) وصدر أمر (تور كماندو) أن لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا في أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود ، تاركين كل ما يملكون بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها ، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر .

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها ـ من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع لليهود ولكن وضع للمسلمين شرط آخر ، وهو أن لا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية ، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع .

ألا يعجب القارىء إذا رأى أن (برونو) يحرق بالنار حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية في

وحدة الوجود ، وقال إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة ؟ الحمد لله رب العالمين .

* * *

ظهر القول بكروية الأرض ـ ذلك الأمر الذي عرفه المسلمون وصار رأياً لهم في أول خلافة بني العباس ، ولم تتحرك له شعرة في بدن ـ فأحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه .

هل يصدق القارىء أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الاطلانطيقي لعله يكتشف أرضاً جديدة كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة ، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين ، ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزستوم وأوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة ، ولم ينتج هذا العرض شيئاً ، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب « إن الذي أوحى إليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد » من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت ؟ قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم ؟

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة » كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل ما يستطاع ، لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم .

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الاستانة ، ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك انكلترا ، وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشف طريقة تطعيم الجدري .

مقاومة تسهيل الولادة

أيُّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق . اكتشاف أمريكاني رأى حضرات

القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : وقال للمرأة : تكثيراً أُكثِّر أتعاب حملك ، بالوجع تلدين أولاداً) .

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد

نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه وفي منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ، ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه .

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأى رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي ، فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله ، وكانت إحدى المعضلات السياسية ، غير أن عزيمة بسمارك نصرت

مـدنية القـرن التاسـع عشـر عـلى سلطان الكنيسة، وأبقت الأستاذ ، وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية .

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب

لا أذكـــر الجمعيـات العلميـــة (الأكـــاديميـــات) التي ألغيت ، والاجتمـاعات التي عـطلت ، لا لشيء كان فيهـا ، سوى هداية البشر إلى منافعهم ، وتنوير بصائـرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ، ومن الطريق العقلي ، من غير استشـارة المسيـطر الالهي ـ وهـو الكنيسـة ـ ولكن أذكر شيئاً واحـداً وهو أن الكـردينال اكسيمنيس أحـرق في غـرناطـة ٨ آلاف كتاب بخط القلم فيهـا كثـير من تـرجمـة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد .

البروتستانت ، أو الاصلاح

ربمـا يقول قـائـل : إن هـذا الـذي ذكـرت هـو عمـل الكنيسـة الرومـانية الكـاثوليكيـة ، ولكن قد قـام في المسيحية مصلحـون يرون إرجـاع الدين إلى أصـل الكتب المقـدسـة ، ويبيحون للعامة أن ينظروا فيها ويفهموهـا ، وقد رفعـوا تلك السيطرة عن الضمائـر والعقول ، ومن عهـد ظهور الاصـلاح

والـرجـوع إلى أصـول الـدين الأولى بـزغت شمس العلم بالغرب ، وبسط للعلم بساط التسامح ، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جرياً مع طبيعة الدين .

لا أذكر في الجواب عن ذلـك إلا ما ذكـر البروتستانت انفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانوناً يحكم بـه عـلى كـل من يخالف معتقـد الـطائفـة ، وقـد أمـر كلفان[1] بإحـراق (سيرفيت) في جنيف لأنـه كان يعتقـد أن الـدين المسيحي كان قـد دخل عليـه شيء من الابتـداع قبـل مجمـع نيقـة ، وكـان يقـول إن روح القـدس ينعش الـطبيعـة بأسرهـا . فكان جـزاؤه على هـذا أن شوي عـلى النـار حتى مات ، وكذا أحرق (فاييي) في تولوز سنة ١٦٢٩ .

كان لوثـير أشد النـاس إنكاراً عـلى من ينظر في فلسفـة أرسطو ، وكان ذلـك المصلح يلقب هذا الفيلسـوف بالخنـزير الدنس الكذاب ، ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الـدين في طريق الـدفاع عنـه !! وكـان كلفان أقـل شتما للفيلسـوف من لـوثـير ، لكنـه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدراً لمن يطلع على شيء من كتبه .

---

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوثر الأول .

وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الأول » فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية ، وإبطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري ، كما أنها منبع نور الايمان بالدين الالهي ، وأنه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره إلى ما يخالف شيئاً مما حوته ، وأنه لا حاجة إلى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة إنهم لم يبطلوا أصلا من الأصول الستة التي تقدمت ، إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الأصل الثاني في سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم ، ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك ، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الأصول الستة) ولم يكن لأهل النظر العقلي جزاء في كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم .

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لعددت فيما ذكرته

من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية ، واضطهادات الكنيسة « ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الانساني من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الأثيم » لكني في بحثي هَذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال وإنما آتي بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال .

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية ، وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى إلى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل ـ كما قالت الجامعة . وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية ـ فماذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته ؟ هب أن مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان ، وقد أقام الدين

سلطتين منفصلتين ، إحداهما : تحل وتربط في الأرض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين ، والأخرى تحل وتربط في الأرض فيما هو من خصائص الدنيا ، أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين ، وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني ؟ إذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية ، وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم ، فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الأخرى ؟ هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين .

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها ؟ والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ، ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس ، وتديرها كيف تشاء ، والملك لا قوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؟

لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة إلا بعد أن يتناول من الوسائل مالا يعد لأضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها أن

تـأتي أعمالهـا عـلى حـدة مستقلة عن الأرواح التي تحيـا بهـا ، والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها .

ثم هـل هذا هـو معنى قول الانجيـل ؟ القصة عـلى ما جاء في الانجيل .

إن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه مـا ينم به ، فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فـأجاب : لم تجربونني ؟ ائتوني بدينار لأنظر إليه . فأتـوه بدينـار ، فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر ، فقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الـظاهر من سيـاق القصة : أن صـاحب السكـة التي تتعـاملون بهـا إذا ضـرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له ، أما قلوبكم وعقـولكم وجميع مـا هو من الله وعليه طابع صنعته ، فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً ، العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلا يمكن أن يكـون العلم تحت سلطة غير السلطة الـروحـانيـة . فـأي تسامح مع العلم في هذا ؟

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعـة الدين المسيحي وأوردنـاه

من مشاربه فيها بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه ، كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ، ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكأون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم .

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين في المسيح عليه السلام ودينه : فهو على غير ما رآه القارىء ، إنا نعتقد أن المسيح روح الله وكلمته[1] ورسوله إلى بني إسرائيل بعث مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ، ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها ، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ، ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعاً فيما أعدها الله له . والعقل من أجلّ القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها ، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه

---

(١) أي من روح الله ، فالاضافة بمعنى من ، أو روح من الله لا من الشيطان ، وكلمته التكوينية ، أي إرادته المعبر عنها بقوله للشيء (كن فيكون) قال تعالى فيه ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وقال في أمه ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ .

فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه . وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالفه شيء منه . هذا الذي نعتقد . فإن صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه إليها أو وكلنا الأمر فيه إلى الله وقلنا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

الدين دين الله وهو دين واحد في الأولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقته ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير : إيمان بالله وحده[1] وإخلاص له في العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا هذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية ، ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ، ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام .

---

(١) أي بربوبيته وألوهيته وحده ! أي لا رب غيره ، يدبر أمور الخلق ويشرع لهم الدين ولا إله غيره يستحق العبادة .

فإذا سأل سائل : إذا كان الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوروبيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته ، فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوروبا وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها ؟

فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت الجامعة ، وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي ، وما يليق أن يكون له مع العلم ، وما انجرّ إليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة ، وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الأيام ، وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى .

القسم الثاني

في الاسلام
طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول

للاسلام في الحقيقة دعوتان ـ دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكيماً قادراً ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان . وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد ، فنبهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك

الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه ، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها ، وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته - كل ذلك من آيات الله ، عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته .

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوالمه ، فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون ﴾ ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام : « كان في عماء تحته هواء »[1] والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ، ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون في أصل مادة العالم التي يسميها بعضهم السديم . وفي معنى الحديث : قوله تعالى في التكوين ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ .

المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغتني عن سرد الآيات الداعية إلى النظر في آيات الكون ـ ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ ﴾ . ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ ـ ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن ، بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله في الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاماً باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ﴿ ما اتخذ الله من ولد . وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾ .

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي . والفكر

الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة . ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة . ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية . ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . وقد اتفق المسلمون ـ إلا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الايمان بالرسل إلا بعد الايمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة[1] فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ، لينتقل منه إلى

---

(١) أي لا يؤخذ منها بالتسليم ابتداء ، ويجعل حجة على الخصم بناء على أنه من الله ، ولا ينافي هذا أنه يؤخذ منها باعتبار ما يقيمون من البرهان على ذلك ، لا بمجرد التسليم ، ولا باعتبار أنهم رسل الله ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالأخذ عنهم ، وهذا الكلام ساقه الاستاذ الامام في مقام دعوة الاسلام وطريقة الاقناع به ، لا في تقرير عقائده لأهله في تربية أولادهم وتعليمهم ـ فهذا يؤخذ من القرآن والسنة مباشرة ، ثم يوضح بالأدلة العقلية والعلمية ولا سيما المأثورة . والجري فيه على أسلوب محاجة المنكرين في الدعوة إليه مضر بتلاميذ المدارس والعوام .

تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة ، وما أدراك ما هو خارق العادة الذي يعتمد عليه الاسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده ، وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فإذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده ، وليس من اختراع البشر ـ هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هادياً للضال ، مقوماً للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه[1]

---

(١) هذا أقوى وجوه الاعجاز المعنوي في القرآن ، وهو اشتماله على العلم

وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعا الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل ، وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها في أجوائها .

وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقاً لابطال إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلا على المدعي فعليهم أن يأتوا به ، قال تعالى ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ وقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة .

= والعرفان والهداية الكافلة بحقيتها وتأثيرها لصلاح الأمم الفاسدة العقائد والأخلاق والأعمال ، بعد انقاذها من الضلال ، وذكر بعده إعجازه اللفظي ، وفيه معجزات أخرى بيناها في تفسير آية التحدي من سورة البقرة المذكورة في الصفحة التالية فتراجع في الجزء الأول من تفسير المنار (صفحة ١٩٠ ـ ٢٢٩) .

ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها . وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت . أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن . فهي مما ينقع عنده العقل ويجمد لديه الفهم . وإنما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ولم يضىء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات[1] .

ثم إن الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً

---

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الأيات الكونية والآيات النفسية العلمية .

من سنة الله في الخليقة ، ولا حاجة إلى بيان ذلك ، فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف .

الأصل الأول للإسلام

النظر العقلي لتحصيل الإيمان[1]

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟

---

(١) هذا الأصل وما بعده ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية ـ راجع ص ٣٤ .

الأصل الثاني للاسلام

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل(١) أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية : تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة(٢) حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

---

(١) يعني إذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظاهر النقل غير القطعي للرواية والدلالة ـ كما صرح به في العنوان ـ يؤخذ بالدليل العقلي القطعي الخ ، وخرج بالقطعي النظريات العقلية غير القطعية كأكثر نظريات الفلاسفة والمتكلمين ، فهذه لا تقدم على ظاهر النقل الصحيح وإن لم يكن قطعي الدلالة (فان قيل) وما تقولون في تعارض الدليلين القطعيين من العقل والشرع ، وأيهما تقدمون ؟ قلنا كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية (رح) إن القطعيين لا يتعارضان ، وإن صحيح المنقول في الاسلام موافق دائما لصريح المعقول ، ففرض التعارض بينهما باطل .

(٢) خرج بهذا القيد تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وأمثالهم والتأويل طريق الخلف ، والتفويض طريق السلف ، ولكن لا كما قال الاستاذ ، بل مذهبهم إمرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، =

وبهـذا الأصل الـذي قام عـلى الكتاب وصحيـح السنة وعمل النبي ﷺ مهدت بين يدي العقل كل سبيـل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسـوف حتى يذهب إلى مـا هـو أبعـد من هـذا ؟ وأي فضـاء يســع أهـل النـظر وطـلاب العلوم إن لم يسعهم هــذا الفضـاء ؟ إن لم يكن في هــذا متسـع لهم فــلا وسعتهم أرض بجبالها ووِهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

أصل ثالث

من أصول الأحكام في الاسلام : البعد عن التكفير

هــلاَّ ذهبت من هـذين الأصلين إلى مــا اشتهــر بــه المسلمون وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الايمان من وجه واحـد حمل عـلى الايمان ، ولا يجـوز حمله على الكفـر ، فهـل رأيت تسامحاً مـع أقوال الفـلاسفة والحكـماء أوسع من هـذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكـون من الحمق بحيث يقول قـولا لا

= فنقول استوى على العرش ، لا كاستوائنا كما أن علمه ليس كعلمنا ، وكـذا قدرته الخ .

يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ إذا بلغ به الحمق هـذا المبلغ كان الأجـدر بـه أن يـذوق حكم محكمـة التفتيش البابوية ، ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار .

أصل رابع في الإسلام
الاعتبار بسنن الله في الخلق(١)

يتبع ذلك الأصـل الأول في الإعتبار ـ وهـو أن لا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخـوارق العادات ـ أصـل آخر وضـع لتقويم ملكات الأنفس القائمة عـلى طريق الإسـلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها ـ ذلـك هو أصـل العبرة بسنـة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر ، وفي آثار سيرهم فيهم .

فمـا جاء في الكتـاب العزيـز مقرراً لهـذا الأصل ﴿قـد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكـذبين ـ سنة من قد أرسلناقبلك من رسلنا ، ولن تجد لسنتنا تحويلا ـ فهل ينظرون إلا سنة الأولـين ؟ فلن تجد لسنـة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحـويلا ـ أو لم يسيـروا في الأرض

---

(١) هذا الأصل ضد الأصل الأول للنصرانية « راجع ص ٢٩ » .

فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟﴾ الخ .

في هذا يصرح الكتاب أن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل ، والسنن الطرائق الثابتة التي تجرى عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . ما لنا ولاختلاف العبارات؟ الذي ينادي به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، أتى لنا بأحكام تلك السنن ؛ فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية ، عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها ، في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ، وتحت أي اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين . وفهم معناه موقوف على

معرفة أوضاع اللسان ، ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون ـ ركبوا الأسفار ، وأنفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك إلى فهم كتاب ربهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه[1] متى حسنت النية في تناوله وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به ، وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانياً (أو آرامياً) وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ، ولم يكتب في العبرية إلا انجيل متى فيما يقال . ألا ترى أن اسم الانجيل نفسه يوناني ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ، ويعظهم

---

(١) أي قد يعد الاسلام من الدين الذي يتقرب به إلى الله ـ الاشتغال بعلم غير ديني بنية صالحة كنفع الناس به .

بلغتهم ، وتحرجاً من النظر في دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

الأصل الخامس للإسلام
قلب السلطة الدينية[1]

أصل من أصول الاسلام انتقل إليه - وما أجله من أصل - قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها .

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً ، قال الله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الاسلام - على آخر - مهما انحطت

---

(١) هذا الأصل ضد الأصل الثاني من أصول النصرانية راجع صفحة ٣١ .

منزلته فيه ـ إلا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقال ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ وقال ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليه لعلهم يحذرون ﴾ فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ـ وهم المراقبون عليها ـ يردونها إلى السبيل السوي إذا انحرفت عنه . وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف[1] .

---

(١) يعني لا يجب على المسلم أن يجعل أحداً من علماء السلف أو الخلف واسطة بينه وبين الله ورسوله ، يتقيد برأيه واجتهاده في فهم كتاب الله أو سنة رسوله . وأما معرفة ما كان عليه سلف الأمة في عصر النبي (ﷺ) فقد صرح الاستاذ بوجوبه بعد ثلاثة أسطر .

وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة ، وما كان الناس عليه زمن النبي ﷺ وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما ، وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال .

فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجرى عليه في عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لاقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز

أن تكون فوضى في عدد كثير ، فلا بد أن تكون في واحد ، وهو السلطان أو الخليفة .

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً ، أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها ـ مما تقدم ذكره ـ بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو ـ على هذا ـ لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم[1] ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم في الفهم والعلم ، ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس ، لأنه في رتبة المستفيد .

النهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه[١] « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[٢] فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه[٣] .

فالأمة ـ أو نائب الأمة ـ هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه[٤] .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيو كراتيك) أي سلطان إلهي ، فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة ، بل بمقتضى الايمان . فليس للمؤمن ما دام مؤمناً أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لدين الله وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على

---

(١) من شواهد ذلك : قول الخليفة الأول رضي الله عنه في خطبته « وإن زغت فقوموني » راجع ص ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع .

(٢) حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما راجع ص ٣٢ من مجلد المنار الرابع .

(٣) مثال ذلك : أن يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

(٤) قد فصلنا هذه الأحكام ومباحثها في (كتاب الخلافة أو الامامة العظمى) .

ما يعرفه من شرائعه لأن عمل صاحب السلطان الديني وقـوله في أي مـظهر ظهـرا : هما دين وشـرع . هكـذا كـانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى ولا تزال الكنيسة تـدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الاشارة إليه .

كـان من أعمال التمـدن الحديث الفصـل بـين السلطة الـدينية والسلطة المـدنية ، فتـرك للكنيسة حق السيـطرة عـلى الاعتقاد والأعمال فيما هو من معـاملة العبد لـربه : تشـرع ، وتنسخ ما تشاء وتراقب ، وتحاسب كما تشـاء ، وتحرم وتعـطي كما تريـد ، وخول السلطة المـدنية حق التشـريع في معـاملات النـاس بعضهم لبعض وحق السيـطرة عـلى مـا يحفظ نـظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هـذا الفصل منبعاً للخير الأعم عندهم[1] .

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن

---

(١) إن البروتستانت الذين ابتدعوا هذا الفصل أعطوا ملوكهم حق حماية الايمان ورياسة الكنيسـة كالإنكليـز والألمان، ويتوجونهم تتويجاً دينيـاً ، وقد اعتـرفت إيطاليا أخيراً للبابا بدولته السياسية المدنية ومملكة الفـاتيكان التي يـدعيها ، والاشـراف على التعليم الـديني في مدارسـها ولكن بـدون مـا كـان لسلفـه الأولين . فازدادت هذه الدولة بهذا التدين قسوة ووحشية في حربها لمسلمي بـرقة وطـرابلس ، من إبادة واستئصـال وهتـك أعـراض بمـا أعـاد الحـرب الصليبية سيرتها الأولى .

السلطتين في شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم : أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه ، وهو منفذها ، والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع ، وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس في الاسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين ، يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد .

يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الاسلام ؟

وأقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريق نظره[1] .

الأصل السادس للإسلام

حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا : إن الدين الاسلامي دين جهادي شرع فيه القتال ولم يكن شرع في الدين المسيحي ، ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة ، وهي الشريعة التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على

(١) وظيفة القاضي معروفة ، وهي الفصل في الخصومات التي ترفع إليه ، ووظيفة المفتي بيان المسائل التي يسأل عنها ، ولكل عالم أن يرد عليه إذا أخطأ . ولقب شيخ الاسلام كان يطلقه العلماء على بعض الممتازين في العلوم ، وأطلقته الدولة العثمانية على مفتيها الرسمي وجعلت له حق اختيار قضاة الشرع والمفتين بمقتضى قانون .

خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ و٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو ، وهي مما لا يدخل تحت الاختيار ، بل ولا محبة الصديق ، وإنما الاختياري العدل بين الأعداء والأولياء . لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي ، أو هو في طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ ليس القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ، ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال[1] .

---

(١) حدث في الحرب الأوروبية الكبرى بعد وفاة الكاتب رحمه الله من مثل هذا =

لم تقع حرب إسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين ، وغاية ما يقال : إن العناية الالهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن الطويل، فتيسر له في شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا في كهولته أو شيخوخته

مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على

= ما لم يسبق له نظير في شدته ، وجاءت الأخبار في أثناء هذه الطبعة للكتاب أن جيش إيطالية الذي يقاتل العرب في بلاد السنوسيين من المغرب يقترف من هذه الفظائع ما تقشعر منه الجلود ، ومنه أنهم يحملون العرب في الطيارات إلى بعد شاسع ويلقونهم منها على الأرض . . . دع ما يفعلون بالنساء . . .

صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة ، خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنّة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »[١] و« من آذى ذميا فليس منا »[٢] واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في الاسلام ، ـ وضيق الصدر من طبع الضعيف ـ فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم .

---

(١) هذه هي القاعدة التي جرى عليها العمل في الاسلام .

(٢) ورد بهذا المعنى أحاديث في الصحاح والسنن . وإيذاء الذمّي والمعاهد محرم بالاجماع . وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه ، خصمته يوم القيامة » وفي إسناده علة .

حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا .

لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي إلا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقي سلاماً بل سيفاً ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه[1] والاسلام يقول

---

(١) هذا نص انجيل متى في هذا . ومثله قول انجيل لوقا (١٤ - ٢٥ و٢٦) وقال لهم (يسوع) : إن كان احد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخوانه حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً) وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل ما نصه (٢٧ أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فائتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي) وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الأهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال في ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع (وإذا غواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله . الخ) .

وفي سفر التثنية أيضاً (٢٠ : ١٠ - ١٦) ما نصه (حين تقرب من مدينة =

كتابه في شأن الوالـدين المشركـين : ﴿ وإن جاهـداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهـما في الدنيـا معـروفاً واتبـع سبيل من أنـاب إليّ ﴾ فهـو في اشتـداده عـلى المهـدين لأمته لا يقضي بـالفـرقـة بـين أب وابن ولا بـين أُم وبنت ، بـل يـأمـر الأولاد المؤمنـين أن يصحبـوا الـوالـدين المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

فـأنت تـرى الاسـلام من جهـة يكتفـي من الأمـم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونـه من قبـل تغلبـه عليهم ، وبـأن يعيشـوا في هـدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يـرخي لهم بعد ذلـك عنان الاختيـار في شؤونهم الخاصـة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخـرى

= لتحاربها ادعها إلى الصلح فـإن أجابتـك إلى الصلح وفتحت لـك فكـل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسـالمك بـل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسـك ، وتأكـل غنيمة أعـدائك الـذي أعـطاك الـرب إلهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعـطيك الـرب إلهك نصيبـاً فلا تستبق منهم نسمة ما) .

ينهي أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم ، وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وإن كان في عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة .

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى إلى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض الاسلام له في شيء من عمله ، إلا أن يحدث شغباً ، أو يفسد أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الأصل السابع للإسلام

مودة المخالفين في العقيدة(١)

المصاهرة

أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية

(١) هذا الأصل الاسلامي هو ضد الأصل السادس للنصرانية (راجع ٣٦) .

كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل وصاحبته في العز والذل والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين في حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة . والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى ﴿ ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوي القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل

الدينين السابقين عليه ؟[1] ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذي يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح الغاوي ، ويرشد الضال . لا يكفر في ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء .

---

(١) يقول بعض النصارى : إذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف مع التباين في العقيدة والتخالف . فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهن ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وبغض أولاده ووالده إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة له ، وانما أباح الاسلام ذلك لمن يدين الله بما أمر به من العدل والرحمة ، وتنفذ شريعته عليه ما فرضته عليه من حقوق الزوجة . وهو المسلم ، زد على ذلك أن الكتابي لا يبيح له دينه التزوج بالمسلمة إلا جحوداً لدينه ، يخرج به عن كونه كتابياً ، أو فسوقاً عنه وإيثاراً لشهوته عليه .

مـاذا ترى الـزوجة الكتـابية لـو كانت من أهـل الـنظر العقلي وذهبت مذهبـاً يخالف مـذهب زوجها ؟ أفينقص ذلـك من مودته لهـا ؟ أو يضعف من شعور الـرحمة التي أفـاضها الله بينه وبينها ؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بـل يتعود المحبـة والنصرة لمن يخالفه في عقيدتـه ودينه وملتـه ، ويألف مخـالطتـه وعشرته وولايته ونصرته . أتراه لا يحتمل أن يرى بجـواره من يعمـل نظره في نـظام الخليقة ليصـل منه إلى اكتشـاف سـر أو تقرير أصل في علم ، أو قاعدة لصناعـة ؟ إن كان قـد يخالف ظاهراً ممـا يعتقد أو يميـل إلى رأي غير الـذي يجد ؟ أفـلا يسع هذا ما يسع المجاهـر بالخـلاف ، وهو معـه على مـا رأيت من الائتلاف ؟

لو ذهبت أعد ما في طبيعة الاسلام من عناصـر وأركان كلها تؤلف مزاج الكـرم ، وتكون حقيقـة المسامحـة مع العلم لأطلت على القارىء أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب عليَّ أن أختم القول بذكر أصـل أشرت إليـه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الأصل الثامن للإسلام
(الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة[1])

(الصحة) الحياة في الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل « بع ما تملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »[2] .

(الرخص) فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشي

(١) هذا الأصل ضد الأصل الثالث للنصرانية (راجع ص ٣٢) .

(٢) يشير إلى حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقد رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة . كان سعد مريضاً في حجة الوداع ، فعادَهُ النبي ﷺ ، وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله ، وفي رواية بما له كله ، فسأله النبي عما ترك لولده فقال : هم أغنياء وفي رواية الجماعة أنه لم يكن له إلا بنت ، وفي رواية أحمد والنسائي ، انه أمره أولا بأن يتصدق بالعشر، والحاصل أنه ما زال يراجعه حتى رضي ﷺ بالثلث وحرم الزيادة بالنص .

منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ، ويصلي قاعداً .

السعي إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الأبدان ، مقدمة على صحة الأديان » فنرى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

(الزينة والطيبات) أباح الاسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية ، جاء في الكتاب العزيز ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في

الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (سورة الأعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره . كما قال ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ثم قال ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة النحل .

الاقتصاد

ووضع قانوناً للانفاق وحفظ المال في قوله ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ سورة الاسراء .

وخشي عــلى المؤمن أن يغلو في طلب الآخــرة فيهلك دنيـاه وينسى نفسه منهـا ، فذكـرنا بمـا قصه علينـا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا إذ قـال ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ سورة القصص .

فترى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها . كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذي جمع لـلانسان أجـزاء حقيقته واعتبره حيواناً ناطقـاً لا جسمانيـاً صرفـاً ولا ملكوتيـاً بحتاً . جعله من أهل الدنيـا كما هـو من أهل الآخـرة . واستبقاه من أهـل هـذا العـالم الجسـداني كـما دعـاه إلى أن يـطلب مقـامـه الروحاني أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ قـد أطلق القيد عن قـواه . ليصل من رفه الحياة (مع القصد) إلى منتهـاه ؟ والنفوس مـطبوعـة على التنافس ، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيـراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً .

وليس في الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد

محدود أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها . بل خصها الله بالمكنة من الرقي في أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

نتيجة جمع الاسلام بين مصالح الدين والدنيا

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ومرشدها وهاديها . بين شاحذين . شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا . وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة . فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضا في الدنيا بالدون وفي الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضي مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع[1] لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد[2] فتطلب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها ، فتسير في مناكب الأرض ولا تكتفي عن الكل بالبعض . وتبحث في تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مديدها إلى ما في جوفها ، ولا

---

(١) هو الحازم القوي العزيمة ، يزمع على الأمر فيمضي فيه ولا ينثني والجيد الرأي المقدام .

(٢) الرعديد : الجبان الكثير الارتعاد .

تجد ما يصدها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها وحركاتها في مداراتها ، واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم . ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده ، إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص إلا في مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التي لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات ؟

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من مظاهره إلى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله إذا توانى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، انظر إلى لطف الاشارة في الآية المتقدمة ﴿قل من حرم زينة الله﴾ الخ حيث قال : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ،

ويجمل به هيئتهم ، ويجلي به زينتهم .

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم ـ فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأي لسان ، فإذا لاقاهم العالم في أي سبيل أو عثروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا إليه وكمشوا[1] وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، إذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »[2] ألم يأتهم عن ربهم : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ ألم يسمعوا في وصفهم قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ .

---

(١) لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيراً ليناً . وكمش الرجل كان سريعاً ماضياً ، وكمش كماشة شجع وأسرع .

(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد ، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي رواية عن علي رضي الله عنه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق » .

ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً ، وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين[1] » إن كان في سند لفظه إلى النبي ﷺ مقال فسند معناه متواتر ، فإنه سند القرآن نفسه ، فإن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي ﷺ .

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وإن كان في أول أمره مطلوباً لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك إليه ثم في تقويم معيشة ، أو ترفيه حال ، أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة ، فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هي أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة

(١) رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الايمان والمدخل وابن عبد البرقي العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً .

سواها نعيما ولذة ، ولست في حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس ، فالحيوان يعرفها بله الإنسان . وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع وعظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول ، وإحراز المعقول . وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح في بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها ، كما ذكرنا فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلي سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه في رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

نتائج هذه الأصول
وآثارها في المسلمين

إلى م أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان

أثرها في أسلافهم الأولين ؟ ـ فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والإسلام في طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي ، كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ، وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذكراتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم ؛ وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين : إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين (إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي : بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ، ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من

الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع) .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ، ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم ، حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين ، فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع .

اشتغال المسلمين
بالعلوم الأدبية ثم العقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم إليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع على أمر الخلافة قد

شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة في الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما سأل عنه دل عليه فذهب إليه ، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو في قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ، ولا يخفى ما في ذلك من ترويج

فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها .

اشتغالهم بالعلوم الكونية
في أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس ، واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ، وأخذ المنصور أيضاً ينشىء المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه ، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية ، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي ، ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم

الرسول صلى الله عليه وسلم[١] .

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دولة الإسلام تعتني بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلد ، منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (إحداهما) من الفضة ، يقال إن صانعها بطليموس نفسه وأنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرونز ، ومكتبة الخلفاء في أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد ، وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

---

(١) يلاحظ أن أشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم أعلمهم بالدين الاسلامي وأشدهم محافظة عليه .

وبعض الخاصة كانوا يولعون بـالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال : إن سلطان بخارى دعا طبيباً أندونيسياً ليزوره فأجابه إن ذلك لا يمكنه لأن كتبـه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهـو لا يستغني عنها كلهـا . وكان حنين بن إسحاق النسطوري في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية ، وكان يتبـرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم
وطريقة التدريس فيها

غطى بسيط المملكة الإسلامية عـلى سعتها بـالمدارس . نقول «على سعتها» لأنها زادت في السعة على المملكة الـرومانيـة بكثير ، فكنت تجـد المدارس في كـل الأقـطار : في المغـول ، في التتـار ، من جهـة المشـرق ، في مـراكش ، في فاس ، في أسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الأساتذة في التدريس أن كل مدرس يعـد درسه ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريـد أن يكتب ثم يلقيه على التلامذة ، وهم يكتبـون عنه ، ثم تكـون هذه الدروس كتباً وأمالي تنشر بين الناس في كل علم . وهنـا

نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا باذن ، على أني لا أعلم شيئاً من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً .

نرجع إلى الكلام في المدارس الإسلامية : يقول (جبون) في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب « إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (وهو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها . غير أن الفقير ينفق عليه من الريع

المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » ا هـ .

انقسمت الممالك الإسلامية في زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام ، وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والأمويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون في مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك ، ومرصد جيرالد في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الإدراك .

جميع المدارس في البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة ، وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلاّ على شريطة أن تكون بعد شهادة له بأنه فاز في الامتحان على شدته، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوروبة على هذا النظام المحكم هي التي انشأها العرب في (سالرن) من بلاد ايطاليا ، وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب في اشبيلية من بلاد اسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، في الأحوال الاجتماعية، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين ، وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها . وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلِّم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب في أول الأمر يونانياً ، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً ، ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً ، كما بقي الأوروبي كذلك عشرة قرون كاملة في التاريخ المسيحي .

قـالـوا : إن (بـاكـون) هـو أول من جعـل التجـربـة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية ، أو أقامها مقام الرواية عن الأسـاتـذة والتمسـك بـآراء المصنفـين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق في أوروبا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخـر القرن الثـاني من الهجرة .

أول شيء تميـز بـه فـلاسفـة العـرب عمن سـواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات ، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤ يـدها التجـربة حتى لقـد نقل جـوستاف لـوبون عن أحـد فـلاسفـة الأوروبيـين أن القـاعـدة عنـد العـرب هي « جـرب وشـاهـد ولاحظ تكن عارفا » وعند الأوروبي إلى ما بعـد القرن العـاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأسـاتذة تكن عـالماً » فلينـظر المصريـون وغيـرهم من الشـرقيـين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقبت من سوء المآل .

قـال (ديلامبـر) في تاريـخ علم الهيئة « إذا عـددت في اليـونانيـين اثنين أو ثـلاثة من الـراصدين أمكنـك أن تعـد في العرب عدداً كبيراً غير محصور » وأما في الكيميـاء فلا يمكنـك

أن تعد مجرباً واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف .

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض .

قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة ، حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية .

لا يمكنني في مقالي هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه في العلوم على اختلاف أنواعها ، فذلك يحتاج إلى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الأوروبيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لأبناء الأمة

العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم[١] ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين[٢] .

« تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها ، فإن هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم ، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها . قال الخازني : إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : إن الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من هذا أنه مر في صور معادن أخرى ، فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ، ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الإنسان : إنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي ،

---

(١) المنار . قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدنية العرب) بالمجلد الثالث .

(٢) هو الفيلسوف درابر الأميركاني .

وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب في صور الأنواع كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك انساناً » اهـ .

ويقول الفيلسوف جوستاف لوبون : « إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي إلى نقض أصل الدين وقال : إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد ، وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص ، فإنه قال كما قال أرسطو وغيره : إن الأشخاص توجد وتفنى ، وأما الأنواع فهي باقية لا تزول : وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر)[1] كما أخطأوا في قولهم عنه : إنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره ، والكل يرجع إليه ، بمعنى أنه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق .

---

(١) يعني قد سبق ذلك في المقالة الأولى مما نشر في المنار وقد جعلناها هنا في آخر الكتاب .

فإن ابن رشد كان مسلماً وكان يعرف أن الإسلام لا ينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة في طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي إليه كما سبق بيانه[1] ولكني لا أنكر نسبته لو نسب إلى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فإن في كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : «إن العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم ، وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن ، لاحظَّ للانسانية منها سوى النظر إليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب . وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي عدت له ، وليس في الأوروبيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن

---

(١) يعني قد سبق ذلك في المقالة الأولى التي رد بها الكاتب على الجامعة ونشرت في المنار وجعلناها هنا في آخر الكتاب .

الفضل ـ في إخراج أوروبا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائبا لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا في افنيون نحو سبعين سنة ، فدب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به القرار هناك ، إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر ، وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا » اهـ.

يقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده ، وأن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في أوروبا ولم تمنحنا فلكياً واحداً » .

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة ، بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء ، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمّالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل

ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قـولا يعرفـه الحق وتثبته المشاهدة : « أن شعوب الأرض لم تر قط فـاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد » .

أخذ الخلفاء والأمراء
بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم : إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانـوا هم بأنفسهم المتعلمـين للعلوم الداعـين إلى تعلمها كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمـون يضطهـد أحياناً أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيـرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعـادون الفلسفـة ظنـا منهم أن منها مـا يعـدو عـلى الـدين فيفسده . هل رأيت في غير الإسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبداً .

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عنـد الخلفـاء والأمراء والخـاصة مـا يليق بهم كيفما كـانت حالهم ، وأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري ، لشهرته بـين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس - صاحب حلب - خرج إلى المعرة ، وقد عصي أهلها عليه ، فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده ، فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير - أطال الله بقاءه - كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئاً من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتاً فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف .

ازالة شبهتين
وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة

وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم في آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم إياهم بالألقاب ، بل واحتقارهم في بعض الأحيان . وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع ـ ممن يكره أهل العلم ـ لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه ، ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء ، وإنما هي نفرة الانسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله إلى حيث يشاء .

يقول آخرون : إن التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله[1] فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعي الحرية في غلوائه، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع ، صوناً له عما يزعزع أركانه ، ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة[2] ولكن

(١) ذكر إمام الحرمين في كتابه (الشامل) في أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وأن ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج .

(٢) أغرب من هذا أن أحد الأساتذة في مدارس أميركا الجامعة قرر فيها نظرية دارون المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة .

هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ، إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش ، واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها في أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ إن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو في التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ، ومع ذلك فهو من مشايخ الإمام البخاري صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده ، حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حباً فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده في

الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً ؟ .

إذ عدَّ عادٌّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك بإغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضي قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ، ويحكي لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة ، أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل ، لضيق الدين

عن أن يسع المخالف بجانبه . وهذا لم يقع في الإسلام ، اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا .

هذه طبيعة الدين الإسلامي عرضتها عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل في هذا خفاء على ناظر؟ وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر؟ أفلا يبسم الإسلام عجباً وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، إن لم يحسبه في أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه إليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه ؟ ؟ .

الاسلام اليوم

والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام
المقال الرابع لذلك الإمام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول: سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي، وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق، ولا شنق لحملة العلوم الكونية، ومقوّمي العقول البشرية، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية، والفنون العصرية، أو ليس الناس تبعاً لهم؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله؟ ألم يسمع بأن رجلا في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية[1] كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوي الحمصي الشهير رحمه الله، ومقالاه في الفقه والتصوف نشرا في المنار وطبعا على حدة، وقد وشى به بعض حساده في دمشق إلى والي الشام فاعتقله الوالي وكان السبب الحقيقي لاعتقاله مقالة له في الخلافة نشرت في المقطم (راجع ترجمته في المنار ص ١٩٦ م ١٩).

ذهب إليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بيَّن فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال إنه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا ـ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ـ فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا : إنه مرق من الدين ، وجاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ؟ فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدي عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف راي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في

علماء الجامع الأزهر الشريف[1] فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه ، وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان ، في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم ، وأنه إنما يريد الغض من علوم الدين[2] أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة

---

(١) هو الشيخ عليش الذي كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضاً طريقتهما في تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف .

(٢) يعني الأستاذ بهذا نفسه فهو الذي أشار بتعليم هذه العلوم .

التشهير به ، مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم إصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وإن كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب ، والمعاقبة بقطع الأعضاء في شرب الدخان ، أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون .

ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخباً ولجباً ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، إذا قيل إنه ينبغي لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفاً من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى أن لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم ؟ .

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عندما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذت مسلماً من شاطىء الاطلانطيقي ، وآخر من تحت جدار الصين لوجدت كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : (إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار .

اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطناً وأحرج صدراً من المقلدين ، وإن أنكرت كثيراً من البدع ، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه ، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم

يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء(١) .

هـل يمكن أن ينكر أحـد جمود الفقهـاء ووقـوفهم عنـد عبارات المصنفين على تباينهـا واختلافهـا واضطراب الآراء في فهمهـا . وإذا عرضت حـادثـة من الحـوادث ولم يكن لمصنف معـروف رأيٌ فيها أحجمـوا عن إبداء الـرأي ، واجتهـدوا في تحويلها عن حقيقتها ، إلى أن تتفق مع قول معروف في كتـاب من الكتب ، حتى لقـد جاء طـالب علم من بلد من بـلاد الـدولة العثمـانية وأراد الالتحـاق بأحـد الأروقـة في الجـامع الأزهر ، فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقـاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيـخ الرواق : إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف فقال : إنني لا أقتنع بما في تلك الكتب ، وإنما الذي يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيـه (ممن مات) قـال إن هذا البلد من قـطر كذا ، وهـو الذي وقف الـواقف عـلى أهله . وإذا قيـل لأحـدهـم : إن الأئمـة أنفسهم لم يعينـوا مـواقـع البلدان ولم

---

(١) يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع . والاهتداء بالسنن . وتقديم الأثر ، على آراء البشر ، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما أرشدت إليه النصوص من علوم الأكوان ، ومقـدمات المدنية والعمران ، التي تعتز بها الأمة ، وتعلو كلمة الملة .

يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر ، وبيان الحدود التي ينتهي إليها ، وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : إنما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلاً عقلياً .

وإذا قيل لهم : اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الإخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة وساكنتكم الحاجة وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك إلى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم في علل ما صرتم وصار الناس إليه ؟ قالوا : ذلك ليس إلينا ، ولا فرضه الله علينا ، وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فإن لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وأن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات

وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة إلى عمل ؟.

رأي رينان في الاسلام

هذا الجمود ـ الذي لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتاباً ـ هو الذي حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع المعلم نقلته عنه الجامعة : « على أنني أخشى أن يثبت الدين الإسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ، ولكني أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال إلى المسامحة ، إلا أنني أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فإذا اختنقت قضي على الدين الإسلامي . ذلك أنه من الثابت الآن أمران : الأول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة لأنها لا تصلح أن تكون وسيلة إليه . والثاني أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين ، وإلا كان موتها ضربة لازب » ا هـ كلام

رينان بتصرف لفظي قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذي سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام ، بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحاً في سعيهم أو نجاحاً في أعمالهم ؟ من أين يكون هذا الجمود إن لم يكن من طبيعة الدين ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فإن لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الاضطهاد من لوازم الدين الإسلامي ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور كاف ـ إذا عم بين المسلمين ـ في أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره ، فما قولك في هذا ؟

الجواب

أقول : هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج

فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه ، فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين - إلى آخر ما يكون من حرية الفكر(التي يعوذون بالله منها) .

فإن شئت أن تقول : إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس .

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين ، فإني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التي ﴿ تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم * إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يُهرعون ﴾ .

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام ، وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها ونصوع بياضها ، ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع إليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره . وإنما هي علة عرضت للمسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم ، وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم ، هو السياسة ، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن : عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين - هو السياسة .

لم أر كالإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفي على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة[1] من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ،

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزناً ومعنى : الرديء وما لا خير فيه من كل شيء ، من خشارة الشعير وهي ما لا لب له ، وخشارة التمر وهي رديئة والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه إذا نقي .

سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منـه في شيء إلا كـما يكون الجهـل من العلم . والطيش من الحلم ، وأفن الرأي من صحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سببا فيما صار إليـه أهله : كان الإسـلام ديناً عـربياً ، ثم لحقـه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً لـه ، ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي ﷺ . فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من التـرك والديلم وغيـرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبـدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فـلا تساعـد الخارج عليـه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي سعـة أحكام الإسـلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الإسـلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفـه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه[١] أكثر من ذلك الجند الأجنبي ، وأقام عليه

(١) هو المعتصم ، بئسما صنع في نصر البدعة على السنة ، وبئسما صنع في تمكين الترك من سلب ملك الأمة .

الرؤساء منه . فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الإسلام آخرون ، كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره .

أي عدوٍ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرِّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ، فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيلهم ، ليعدوا من قبيلهم ، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعللوه ، أو متداعياً ليدعموه ، أو يكاد ينقضّ ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم وهم يد الظالم . فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما

يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم ، وغلاً للأيدي عن العمل والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة ؛ وضعف البصيرة في الدين ، وموافقة الهوى - أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة - سياسة الظلمة وأهل الأثرة - هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاماً فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله وعلى دينه ، فكل ما يعاب الآن على

المسلمين ليس من الاسلام ، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً ، والقرآن شاهد صادق ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لا بد أن تزول .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وإنما يحسن إجمال القول فيها .

كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ، ويسيح به في الأرض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته ، أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ، ولكنه سار سير التدريج .

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم إليها ـ أريد حاجتهم في فهم كتابهم ـ إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إليه هيئة تراكيبها . وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال بل دالا لخصمه ، بأن كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة ، فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأي حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ؟ وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون في كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه ، هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يخف

بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر إلا إلى اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها ، حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة ، وإن لم يصلوا منها إلى غاية في فهم ما وراءها ، فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الأولين رضي الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشافعي رحمه الله تعالى ، أو بعض كتب الأمهات في فقه الحنفية ، كطالب المصحف في بيت الزنديق. تجد جزءاً من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر ، فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض لها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله ، وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد في الأخبار من أن المبلَّغ ربما كان أوعى من السامع[1] وأن هذه الأمة كالمطر ، لا

(١) يشير إلى حديث ابن مسعود عند الترمذي وابن ماجة وهو سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرأ سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى له من سامع » ورواه غيرهما عن غيره .

يدرى أوله خير أو آخره[1] وقلة الالتفات إلى ذلك قد أضاعت آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته ، لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد ، وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه

(١) يشير إلى حديث أنس عند الترمذي وهو ، قال رسول الله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » ورواه غيره .

إلى مذهب إمام آخر ، وإذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم في شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه . يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدي إلى الجحود . .

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه ، مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد ، فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التنطع وأخذت الصلات تتقطع ، وامتازت فرق وتألفت شيع ، كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تميزاً حقيقياً، فما استطاعوا وإنما هو تميز وهمي ، وخلف في أكثر المسائل لفظي . وإنما هي الشهوات وضروب

السياسات . أشعلت نيران الحرب بين المتسببين إلى تلك الشيع ، حتى آل الأمر إلى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل[1] من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة ، لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال : إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل في أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء : « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة ، وقصر نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه . أو هي السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون إليها بأزمة القوة أو الأهواء .

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمي في تقريره الذي وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية وبينا مكانته وأدلته في مقدمة ذلك التقرير .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود في أحكام الشريعة جر إلى عسرٍ حمل الناس على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً سمحة تسع العالم بأسره ، وهي اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي إليها ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها.

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلا لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ، فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوماً أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك ؟ فأجاب : إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند

المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء ، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام ، وليس المسؤول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حُسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها . وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فإذا قلت للعارف تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك ، فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلا وإن لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه ،

قال : سبحان الله ! هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن لا يأتي شيئاً إلا إذا أتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه[1] ثم إذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً ، وأنك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة ، وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصاً عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد فقال لي : إنه لا فائدة في ذلك قطعاً، وهو تعب في غير طائل فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنهى . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهي لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ

(١) تراهم يقولون في الكلام على آية أو حديث أنه حجة على أصحابنا ، وتجد مثل هذا في مواضع من شرح النووي على صحيح مسلم وهو الذي لقبه الشافعية بالشافعي الثاني .

الفساد من النفوس غايته ، كما يزعم ، ولم ينظر في الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ، ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الالهية التي وردت في النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر ، وأن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا ، بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو إن هذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه . وغيره أفضل منه . كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل الله .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريراً للمسائل وإملاء للحقائق على الطلاب ، ولو لم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدي الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم ، قد يعترف لك بصحة ما تقول ، ولكنه يستمر في عمله ، اعتماداً

على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هـذا الجمود من الـدين ؟ وهل يـرتـاب من لـه أدنى إدراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم في العمـل ، وأشد ضـرراً منه الجمـود في العقيدة : نسوا ما جاء في الكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيـه بالـظن ، وأن العقل هـو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسـالة وأن النقل ينبوع له فيما بعـد ذلك[1] من علم الغيب كـأحوال الآخرة وفروض العبـادات وهيئاتها ، وأن العقل إن لم يستقـل وحده في إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالـة في الاعتقاد بوجود الله وبأنـه يجوز أن يـرسل الـرسل فتـأتينا عنـه بالمنقول ـ نسوا ذلك كله وقالوا لا بد من اتباع مـذهب خاص

---

(١) يعني أن الأخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعـل ـ وفاقـا لنظر العقـل ـ على التصديق بأن الله أرسلهم ، فهو لا يكون إلا بعده وهذا قطعي بالنسبـة إلى من يدعى إلى الدين من الكفار وإلى إقامة الحجة على المنكـر ، وأمـا الناشىء في الاسلام فلا ترتيب عنده في ذلك فهو يـأخذ العلم بـالله وصفاتـه وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة .

في العقيـدة ، وافترقـوا فرقـاً وتمزقـوا شيعاً كـما قلنا ولم يكفهم الالـزام باتبـاع مـذهب خـاص في نفس المعتقـد ، بـل ذهب بعضهم إلى أنه لا بد من الأخـذ بدلائـل خاصـة للوصول إلى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الـدليل كـالتقليد في المـدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد ، ويا ليته النقل عن المعصـوم ، بل النقـل ولو عن غـير المعـروف ، فتقـررت لـديهم قاعـدة : إن عقيدة كـذا صحيحـة ، لأن كتـاب كـذا للمصنف فـلان يقول ذلـك ، ولما كـانت الكتب قـد تختلف أقـوالها صـار من الصعب أن يجد الـواحد منهم لنفسـه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلـك من قراء المقلدين إلى أميهم فتـراهم يعتقدون كـل ما يقـال وينقل عن معـروف الاسم ، وإن لم يكن في حق الأمر من أهـل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم .

انجر التساهـل في الاعتماد عـلى النقل إلى الخـروج عما اختـطه لنـا السلف رضي الله عنهم فقـد كـانـوا ينقبـون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنـون قولـه ، حتى يكونـوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمـود المتأخـر على مـا يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجـد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنـه أهل لـلأخذ عنـه بدون بحث ولا

تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة ، فمنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله ، وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب ، وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يُعرف وممن لا يُعرف ـ وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غداً إن شاء الله .

سأل سائل من الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته ـ فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ، ثم قيل : إن الزمان ناصر

الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا ، وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟ .

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ، ووكلت إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب ، وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجني الأمم منه إلا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه ﷺ المجمع عليه عند السلف قاطبة لانتصب له ناعر من العامة[1] يصيح في وجهه (ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) ويريد من آبائه الأولين : من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الدين ، وإذا دعي إلى ترك المنكر نفر وزمجر وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب

---

(١) من نعرت الدابة تنعر به بضم العين نعيراً صوتت .

منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون.

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين ديناً ، ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدي منذريه ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم إن الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما في مدارس الحكومات الإسلامية ، وإما في المدارس الأجنبية ، داخل بلادهم أو خارجاً عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فإني لا أعرف كثيراً من أحوالهم ، ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً ، وأرجو أن

يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الأوروبية ، ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً ، وهم اشد تمسكاً بلب الدين الإسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ، ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، اكثر الله منهم .

وإنما اتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن اساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل في مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الإسلامي ، وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وأن لا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلامذة المدارس الأجنبية

هؤلاء التلامذة إن كانوا في مدارس اجنبية لا أثر

لتعليم الدين الإسلامي فيها ، بل ربما يعلَّم فيها دين آخر ، فقد يسري إلى عقائدهم شيء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مراراً ، ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم ، وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لأولئك الأباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ، ولكن الجمود صير كل شيء صعباً ، وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة ، كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم إلا زاجراً عن خير أو دافعاً إلى شر ، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء

ورثة الأغنياء الـذين تصيح من شـرور أعمالهم الجرائد كـل يـوم ، فـالجهـل خير ممـا يتعلم هؤلاء بـدون ريبـة ، وليت الاسـلام لم يـرحب صـدره لمثل هـذا الضـار من التعليم والتعلُّم.

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غـير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقيـة ، فهؤلاء ينشأون عـلى شيء من المعـارف في الفنون المختلفـة ، وتقـرر لهم حقـائق في الكـون السماوي أو الأرضي ، أو في الاجتماع الانساني ، ومن عرف شيئاً انطلق لسـانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين ، وهو جامد على ألفاظ سمعهـا ، فلو سمع غيـرها أنكـره وظنه مخـالفاً للعقيـدة الصحيحة ، فيـأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الـدين ، هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمـه منه ، فينفر من دينـه نفرتـه من الجهل ، ولـو قال لـه قائـل : ارجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسـك وعـلى خصمك ، حـار لا يدري إلى أي كتـاب يـرجـع ؟ ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القـوم على مـا فيها من تشتيت وتعقيد ، وأبقوهـا كما ورثـوها ، فيعـود إلى النفور

من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آداباً في غيره وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون إلى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظاً » فإذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة المالية أو نحو ذلك ، فإنما ينثر الألفاظ نثراً لا يرجع فيها إلى أصل ثابت ، ولا إلى علم صحيح . ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي إلى المفسدة ، وهو يشعر - أو لا يشعر - على حسب حاله ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه ، أو درس عقيدة من عقائده . فشأنهم كلام في كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا في كتب دينهم وفي أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن إليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مادوماً بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع إليها في سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

المقال الخامس لذلك الامام الحكيم
وفيه بيان علاج الداء

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامي - بعد عرضها عليك فيما سبق - أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث - مرض الجمود على الموجود - وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة إلى إعادة ذلك .

ثم إننا أشرنا أيضاً إلى بعض الأسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الإسلام ، وأن محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال

أيديهم لخاصة نفسه وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً . وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه ؟ ؟

جاء في الكتاب المبين ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ـ هو القرآن الذي ﴿أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ هو كما قال ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ، لا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً ، بريئاً من الاختلاف والاضطراب وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب . وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره ، فينبلج ضياؤه لأعين أوليائه . إن شاء الله تعالى .

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم

لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به إليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر . يصيحون بأنهم عُمي صم . فلا يرون له سناء . ولا يسمعون له نداء . ويعدون ذلك من كمال الايمان به . ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطول الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون . ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه . ويقوون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه في شيء كما قدمنا .

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم . فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع . وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه[1] ومن اتبع سنن قوم

---

(١) في الكلام اشارة إلى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما .

استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم . ولن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين . وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه . ونبذوا كتابه وراءهم ظهرياً ـ أحل بهم الذل . وضرب عليهم المسكنة . وأورث غيرهم أرضهم وديارهم . فهل ينتظر المتبعون سننهم . السائرون على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا وقد بدأوا يفيقون من سكرتهم ويفزعوا إلى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ، ويسير بهم إلى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ، ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : إن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية

أبداً ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون إليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الأول في قلوب المسلمين ويأوي إليها ـ العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس إلا إليه ، ولا يعتمد إلا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون ـ كما يقول بعض أعداء القرآن : إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما مني به الدين من الكساد ، وما عرض له من العلل وما نراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة في السعي ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة إلا إلى العدم ، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) .

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام (أي الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً ، وإنما هي يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وإن آيات الله في الكون ـ وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ـ تشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟)

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة ، فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلاً بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ؟ إن زمناً كهذا لا يكفي ـ وقد تبين أنه لم يكف ـ لاهتداء الناس كافة بهديه . ولمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

وقد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به إلى ما يرون

ونـرى . ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلـك الوعـد . ويـأخـذ الدين بيد العلم ويتعاونا معـاً على تقـويم العقل والـوجدان . فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعـرف حدود سلطتـه ، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ويكشف ما مكنه فيه من أسـرار العـالمين . حتى إذا غشيتـه سبحات الجـلال وقف خـاشعـاً . وقفل راجعاً ، وأخـذ إخذ الـراسخين في العلم . الـذين قال فيهم أمير المؤمنين عـلي بن أبي طالب (كـرم الله وجهه) فيـما روي عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السـدد المضروبـة دون العيـوب . الإقـرار بجملة مـا جهلوا تفسيـره من الغيب المحجـوب . فمـدح الله اعتـرافهم بـالعجـز عن تنـاول مـا لم يحيطوا به علماً . وسمى تـركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخـاً » واعتبر بعـد ذلك بقـوله : « فـاقتصر عـلى ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحـانه عـلى قدر عقلك ، فتكـون من الهـالكين . هـو القـادر الـذي إذا ارتمت الأوهـام لتـدرك منقطع[1] قدرته . وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسـواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته . وتـولهت[2] القلوب إليه لتجري في كيفيـة صفاتـه . وغمضت مداخـل العقول في

---

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره .

(٢) تولهت اشتد عشقها .

حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته . ردعها وهي تجوب مهاوي سدف[1] الغيوب ، متخلصة إليه سبحانه ، فرجعت إذ جبهت[2] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ولا تخطر ببال أولي الرَّوِيَّات خاطرة من تقدير جلال عزته »[3] .

هنالك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس ، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلي . كوجدانك أنك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك

---

(١) السدف : جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى .

(٢) جبهة : ضرب جبهته ورده .

(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على أنه موضوع على علي كرم الله وجهه .

وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر في الغايات والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ـ والوجدان لإدراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما . عين تقع على القريب ، وأخرى تمتد إلى البعيد . وهي في حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى . فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق . عقل وقلب . برهان وإذعان . فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد انسانين . والوجود الفرد وجودين .

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك . وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك . فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه

ولا غيره . عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين - إما أن يقينك ليس بيقين . وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك . فأنت تظنها علماً وما هي به . وإما أن وجدانك وهمٌ تمكن فيك . وعادة رسخت في مكان القوة منك وليس بالوجدان الصحيح . وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هي منه في شيء .

لا بد أن ينتهي أمر العالم إلى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه(١) « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء : رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعاً بإسناد ضعيف . ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وقال : هذا إسناد فيه نظر . قلت : فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدي في شرح الأحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه الأصبهاني ، وأبو نصر في الابانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة .

الله » وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كـره الكافـرون[1] وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينـك وبين مـا أعدك بـه إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتـوضيح المنهـج ، وتقويم الأعـوج ، وهو مـا تقتضيه السنـة الإلهية في التدريج ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجـد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وهو خير الناصرين .

(١) الكافر من يرى الدليـل فيصد عنـه ولا ينظر فيـه أو ينظره فيعـرف الحق ثم يماري فيه وينكره عناداً اهـ من هامش الأصل .

حرية العلم في أوروبا الآن

ونسبتها إلى الماضي والحاضر في الإسلام
وهو المقال السادس لذلك الإمام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة[1] وهو « أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوروبا وعدم تمكنها من التغلب على الاضطهاد الإسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة » .

ليس من السهل عليّ أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية وإنما هي عين الرضى تناولت

(١) يذكر القراء أن كلام الجامعة في الطعن بالاسلام كان مبنياً على أربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفي هذا المقال الرد على الرابع .

من حاضر الحال ، ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلماً ؟ أم يسمى غل الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرماً ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسي المملكة الإيطالية وكرسي المملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمي ذلك تسامحاً من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها أهل أوروبا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين ـ تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها .

اقتباس مدنية أوروبا من الاسلام
وأسباب ظهورها العام

السبب الأول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين في أوروبا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب، منها ما اتخذ السر حجاباً له حتى يقوى . ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة ، وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما إلى المدنية التي كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم ، واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى

ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الإنساني يتلمس السبيل إلى الخلاص وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة ، في أدنى الأشياء وأعلاها حتى أنه عندما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لا بد أن تمر في الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع في أعناقها أجراس . وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه .

لقائل أن يقول : إن القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيماً مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل عليَّ أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس خنازير كان يظهر من حين إلى حين ، إلا

أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الأوروبيون اليوم ، ونحن لا نبخسها قدرها كذلك .

السبب الثاني : الضغط الديني

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم ، فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التي نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون إليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم ظناً منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم وكان منهم (إيراسم) الشهير ، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الاصلاح لم تنتظر

إلا أن تأمن عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم « وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم في العمل لإفناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضارها في كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغني عنه واحدة منها ، والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أي طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي : نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بي إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وإنما أنبه القارىء إلى الاعتبار بما تقدم من القول، وبما يمكنه أن

يقف عليـه في كتب القـوم . ليعلم أن الـدين المسيـحي في أوروبا لم يحتمل العلم فضلا وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكـانة وخضـوعاً ، ولـو شاء أن لا يحتمـل لم يستطع إلى ذلك سبيلا .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمـة وإقدام وغيـرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديـان ، وهم مـع غلوهم في الدين واشتـدادهم في استعمال سلطانهم عـلى النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفـع الشبه عنـه ، ولم يـزدهم العلم الجديـد إلا وسائـل وسبلا لتـرويج عقـائـده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعـامة من الشعـوب في تخاذل عنـه . والأمة الفـرنسيـة ـ التي كـانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من أشد الناس عليـه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : ومدارس اللاهـوت لا تزال عـامرة وطـلاب اللاهـوت يعدون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول تـرى من مزايـاها حمـاية

الدين المسيحي في أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت ـ في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ـ ما نصه مترجماً : إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً .

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فإن وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف ـ إن شاء الله ـ بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والإسلام .

عود إلى سماحة الإسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم ـ والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء

والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكلٌ مقبل على عمله ، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب ، والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به - وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والإمام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصري فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد ابن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان

المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد - أمرٌ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الأحاديث[1] .

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين في قوته ، والعقيدة في أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ، ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف إلى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ،

---

(١) رواه أبو الشيخ بن حيان في العظمة عن أبي هريرة بسند ضعيف ، ورواه من طريقة ابن الجوزي في الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس (خير من قيام ليلة) ولشهرة هذا المعنى قال الغزالي : وردت السنة بكذا .

عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء ، شأن الأحرار في الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر : إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى ، إلا إذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الإخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم ، فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين

وعدوى التعصب في المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورمي زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : أن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ـ تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه ـ وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالين وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بإرشادهم في الأغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلواً فيه بالباطل ،

ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الإسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أخطىء القارىء إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي ، أو ما يماثل ذلك - أو زعم أن قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وأن الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين ، أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الإمام الغزالي إلى غرناطة وبعدما انتفع بها المسلمون

أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين ـ : إنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم ، وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة .

اهمال آثار السلف
وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم ، حتى إنك لا تجد اليوم في أيديهم كتاباً من كتب أبي الحسن الأشعري ولا أبي منصور الماتريدي ، ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات أبي بكر الباقلاني ، أو أبي إسحاق الاسفرايني ، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس . منها تفسير الطبري وتفسير أبي

مسلم الأصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر بن العربي وكثير غيرها[1] وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين ، وأن لها فيه سلفاً ، أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان ؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرأون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله ، أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله

(١) قد طبع بعد وفاة الأستاذ رحمه الله تفسيرا الجصاص الحنفي وابن العربي المالكي وكلاهما خاص بأحكام القرآن الفقهية ومن أنفس ما ألف فيها أنصار المذاهب وتفسير الطبري خير منها كما أن كتب ابن تيمية في العقائد خير من كتب اولئك النظار كلهم .

وسلم ، يأخذ فيها بالتسليم فإذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقاً عليه بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول[1] .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقلّ جداً في المغرب الأقصى ، ولم يبق الاهتمام به إلا في بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل - وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم - وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوروبا أو في المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء ، وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليما دينيا ينظر إليه - وإما للفتور والخمود ، الذي نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع

(١) بل هذه الكتب الكلامية لا يوجد فيها بيان مذهب السلف الذي أثبته المحدثون بالروايات الصحيحة ، وما ينقل فيها عن تفويض السلف في الصفات والمتشابهات غير سديد .

جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام « إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » .

فهذا الصنف من المسلمين ـ وهو معظمهم ـ قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فإذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعاً من دين الإسلام ـ دين محمد ﷺ ـ دين القرآن ـ دين السنة الثابتة ـ دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد

عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الـدنيا وحرموا ثمـار العقل وكـانوا كلما تـوسعوا في العلوم الـدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأمـا غيرهم فكلما اتصلوا بـالدين وجـدُّوا في المحافـظة عليـه أنكرهم العلم وتجهمهـم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصـح أن يكون لـه في الـدين عمـل ، ولا أن يـظهـر منـه فيـه أثـر ، والـدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بـين ما يجـد القلب وما يكسب العقـل . فالفصـل تـام بـين العقـل والـدين ، ولا سبيـل إلى الجمع بينهما : سـامحهم الله فيما يسمـونه تسـامحاً مـع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيـل أن يكون بينـه وبينه سلم .

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمـين للعلم ؟ أقول « اضـطهاد » ولا أريـد بـه مـا كـان عنـد الأمم المسيحيـة من الاشتـداد في إبـادة أهله والتنكيـل بهم ، واختـراع ضـروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الإعدام بمجرد التهمة، فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنـة جهلهم ، ولكن أريد

من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديب اضطهاداً ـ إنما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردهم إلى العلم بدينهم والتنصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة .

الدعاة في الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوروبا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي[١] إلى أن ظهرت قوة العلم

(١) كذا في الأصل المطبوع على عهد المؤلف ، ولعله القرن الرابع عشر .

في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا . إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم ـ فما يزيد ـ في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم ، حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف .

المقلِّد دون المقلَّد

ربما يقول القائل : إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ،

وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل إليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم ، والتوسع في علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين : قسما ينقطع إلى الآخرة في الأديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خلوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر . كما يقولون . يجري بهم إلى حيث لا يعلمون ، ثم هم مع ذلك أحرص الناس على الحياة، وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا ، فما هذا التناقض ؟ .

فأقول له : إنك قد نسيت أن المقلِّديكون دائماً أحط حالا وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلَّد إلى ظاهرهولا يدري سره ولا ما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة . ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما إنهم قد

خلطوا في التقليد ، وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقي إلى أن يستريح ، فينهض إلى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين ، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا .

الإصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد في هذه الأيام ؟ كل يقول : ديني ملتي ، إسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الإسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة ، كتب جديدة ، ومايشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامي كثيرون ، ولا

نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً ، وصدّاً عما يدعوا إليه هؤلاء ؟ .

ويمكنني أن أقول له : إن الصادق من هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء ، وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر ، كالزبد لا يمكث في الأرض ، وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا في أمر الدين ، والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب ، فانتظر[1] .

---

(١) قد كثر بعد كتابة الامام هذا تأثير دعوة الاصلاح في القطر المصري وغيره بنبذ الخرافات والرجوع إلى مذهب السلف حتى في الأزهر ، رغم أنوف بعض أكابر شيوخه ولكن لما ينتظم عقد المصلحين فيكونوا أولى قوة يغلبون بها المفاسد الخرافية والاباحية ، وقد أجاب الامام عن السؤال الذي أورده عن سبب هذا بما ترى .

قد يقول القائل : لِمَ لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوروبيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الإسلام وحجة عليه ؟.

وأقول له : إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسري فيها الحركة العلمية ، إلى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالي المنبهات . وتواصل الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة فلم يمض عليهم وهم في بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذي قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ، ثم تقضي نحبها في آخره . وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز في شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو في التعصب الديني فضلا عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطاً فيه والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره في مثل المستعمرات الهولاندية في الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال في الجنوب ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا في الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها في جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر إليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً .

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ، ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها مع ما اتخذته

قاعدة لعملها وهو الشدة والإفراط في القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد ، وهو محال كما يقرره فلاسفتهم[1] .

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم فشرعت دولتهم في تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطني أو المالي وقد أكرهوا سلطان المغرب الأقصى على توقيع ظهير (مرسوم) يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك في شعب البربر ، فأنشأت لهم قانوناً بربرياً بعيداً عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان في الأحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية . وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى إذا ما تم لها إخراج البربر من الاسلام ، وهم يزيدون على ثلثي السكان أكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد . وأما إيطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فهي تحاول استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم إيطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا ! (والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) .

رأي هانوتو الأخير
في معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين ، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون ، وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء[1] ثم بعد أن قتل المسألة علما ثلاث سنين ، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين ، رجع إلى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ، ورأي غير الذي كان يصدر عنه . وإني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة (١٩٠٢ م) متعلقاً بافريقيا ، وأقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه ، وهو بالمعنى :

« إن القواعد الجديدة التي يجب أن يكون عليها العمل في أفريقيا هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون فقال : « إنها الأمن والسلم » ثم

---

(١) هو أنه طعن في بعض عقائد الاسلام فرد عليه الاستاذ الإمام كاتب هذا ردا دمغ به جهله بالأديان والتاريخ فرجع عنه واعتذر .

قال « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما أننا مدينون لهم بالتساهل الديني ، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول : إن التمدن الأوروبي يجد في طريقه في أفريقيا لا سيما في شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام ، والذي هو في هذه الجهات (شمال افريقيا) أكثر نشاطاً منه في غيرها ، وهذا الدين يدعو إلى إله واحد ، ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولي على المؤمن استيلاء شديداً ، فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده ، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه ، وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية (لا إكراه في الدين) شعاراً لا نخرج عن حدود معناها . وأن نحترم الدين الإسلامي ونحميه من كل طارىء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : « إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات » ا هـ محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارىء : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر ـ في نسبه إلى صاحب

الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة ـ في مذهبه ؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى .

ترى هانوتو يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين ، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم ، وتركهم يعملون بدينهم وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر[1] فهل يليق بمنصف أن يذكر المسلم إذا ذكر التعصب ما دام في الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

سياسة الانجليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها ، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم ، وهي الأمة الانجليزية ، فهي

---

(١) ذهب وقت النظر ، وأعقبه دور العمل ، وعلم أنها لم تجبه بل أغرت رجال النصرانية ودعاتها بأقبح الطعن في الاسلام وشرعت هي في محوه من بلاد المغرب كلها وسيرد الله كيدها في نحرها .

وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه ، وقد امتاز الإنجليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق ، وظهر أثر ذلك في كثير من كتابهم مثل (ولتر سكوت) و(شيل) وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الإنجليز بأزمان طويلة ، فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً : إن هذه الخصلة الشريفة ـ خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون ـ هي من أجل الخصال التي ورثها غير المسلمين عن المسلمين ، وهل أجد من يأبى على القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنجليز وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين ، وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب . ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة ، لا يفرقون بين دين ودين(١)

---

(١) نقول مع الأسف : إن الإنجليز طفقوا يرجعون القهقري في هذا الأمر وفي=

وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم .

= سائر المزايا التي فضلوا بها غيرهم من الأوروبيين . فقد منعوا المنار من السودان منذ بضع سنين ، وهم الآن يصادرونه في بلاد أخرى ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .
(هذا ما علقته في حاشية الطبعة الثالثة لهذا الكتاب سنة ١٣٤١ ومن الانصاف أن أقول إن حكومة السودان عادت إلى الاذن بدخول المنار في تلك البلاد . وقد منعته فرنسا من دخول المغرب في هذا العام ١٣٤٩) .

خاتمة

فإن قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل ، وترويج الكسل ؟ قلت : إني أوجه كلامي هذا إلى أهل النهم إلى الفهم ، وأرباب الشره إلى المعرفة ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال ، وأطول منه أضعافاً مضاعفة ، لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، وأما القارىء الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر إليه في الخطاب ، ولا يعتد به عند الحساب ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد ، وأنتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الإسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى .

وقبل أن أترك القارىء أنبهه إلى أن ما أجمل في هذه الفصول لم نقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف ، كما يعرفه القارىء نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب ، والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر ، وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على غيرنا ، لكن إذا عشا الساري إلى ضوء نارنا ، وطلب القرى منا ، فاسمعناه ما لدينا ، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة ، وأهنأ من خلق الأناة ، إن شاء الله . اهـ .

تم الكتاب والحمد لله

« تنبيه » قد رأينا أن نزيد في هذه الطبعة ما زدناه فيما قبلها من رد الأستاذ الإمام رحمه الله على مجلة الجامعة فيما كانت كتبته في فلسفة ابن رشد ونشر في المجلد الخامس من المنار مع مقدمة المنار له ، وهو ما تراه فيما يلي ، وهو أول ما كتبه الأستاذ من الرد .

الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد
قاضي القضاة في الأندلس(*)

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين ، وأكبر أساتذة أوروبا في العلم والفلسفة . لأن فلسفته انتقلت من الأندلس (إسبانيا) إلى سائر بلاد أوروبا، فكانت مبدأ نهضة الأوروبيين الحاضرة . ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة . وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب .

وقد نشرت مجلة الجامعة تاريخه وتكلمت عن فلسفته ، واستطردت إلى مسائل أخرى كمذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الإسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعلمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل . والإنسان دائماً عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه . فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتلقي عن أهله إذا تكلم أو كتب

(*) منقول من الجزء العاشر من مجلد المنار الخامس بقلم منشئه .

فيه ؟ وإن صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الإسلامية لأنه ليس مسلماً ، ولا فلسفة اليونانيين لأنها قد نسخت بالفلسفة العصرية ، فلا شك عندنا أنه لم يعتمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد إلى إنكار ارتباط الأسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساءوا الظن به ، واحتموا عليه ، ورغبوا إلينا في الرد عليه ، لأن من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الإسلامية وعن أئمة المسلمين .

وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الأعلام ، الذين يرجع إليهم إذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام ، ولما رأينا ذلك الأستاذ وعد الطالبين بأن يكتب في بيان حقيقة تلك المسائل التي وقع فيها الخطأ أمسكنا نحن عن الكتابة ، لأنه هو الأجدر بالفصل بين الحق والباطل ، والذي إذا قال لم يترك مجالاً لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فننشر في هذا الجزء مقالته في فلسفة ابن رشد ، ومذهب المتكلمين ، وسننشر في الأجزاء التالية مقالاته في « الاضطهاد في النصرانية والإسلام »(*) .

(*) هو الذي سميناه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

تمهيد لمقالة الأستاذ الحكيم

لا بد لفهم قراء هذه المقالة من ذكر ما قالته الجامعة في فلسفة ابن رشد لأن كاتب المقالة لم يذكر فيها إلا مواضع النقد . قالت الجامعة :

المادة وخلق العالم

« إن أعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل الكائنات ، وهو يرى في ذلك رأي ارسطو فيقول : إن كل فعل يقضي إلى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة ، والحركة تقتضي شيئاً لتحركه ، ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق ، وهذا الشيء هو في رأيه المادة الأصلية التي صنعت الكائنات منها . ولكن ما هي هذه المادة ؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف . بل هي ضرب من الإفتراض لا بد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبديا بسبب مادته ، أي إنه لا يتلاشى أبداً ، لأن مادته لا تتلاشى أبداً وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال ، وإلا حدث فراغ ووقوف في الكون ،وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ولولا هذه

الحركة المستمـرة لما حـدثت التحولات المتتـالية الـواجبة لخلق العالم ، بل لما حدث شيء قط . وبنـاء عليه فـالعامـل الأول الذي هو مصدر القوة والفعـل (أي الخالق سبحـانه وتعـالى) يكون غير مختار في فعله لأن الحريـة والاختيار يقتضيـان كونـه محدثاً ، والخالق تنزه عن أن يكون حديثاً .

اتصال الكون بالخالق

« هذا فيما يختص بخلق العالم ، وهو مذهب قريب جداً من مـذاهب الماديـين كما تـرى ، ولكن كيف يستولي العـامـل الأول على الكون ويدبره ؟ » .

« لابن رشد في ذلك تمثيـل يدل عـلى حقيقة مـذهبه في هذه المسألة الخطيرة ، فإنه يشبه حكومة الكون ـ أي تدبيـره ـ بحكومة المدينة ، فإنه كما أن كل شؤون المدينة تتفـرق وتتجه إلى نقطة واحدة ، وهي نقطة الحاكم العام فيها . فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ، ولو لم تكن له يد في كل شأن من هذه الشؤون ـ كذلك الخالق في الأكوان ، فإنه نقطة دائرتها ، ومصدر القوات التي تدبرهـا ، وإن لم يكن له دخـل مباشر في كل جزء من هذه القوات ، فبناء على ذلك لا يكون للكون (اتصال) بالخالق مباشرة ، وإنما هذا الاتصـال يكون

للعقل الأول وحده . وهذا العقل الأول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للكواكب ، وعلى ذلك فالسماء في رأي فيلسوف قرطبة كون حي ، بل أشرف الأحياء والكائنات ، وهي مؤلفة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة . والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر ، أما العقل الأول الذي منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة منها عقل ، أي قوة تعرف بها طريقها ، كما أن للانسان عقلا يعرف به طريقه . وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض ، والتي يلي بعضها بعضاً محكومة بعضها ببعض ، إنما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الأولى في السماء إلى أرضنا هذه ، وهي عالمة بنفسها وبما يجري في الدوائر السفلى البعيدة عنها وبناء على ذلك يكون للعقل الأول الذي هو مصدر كل هذه الحركات علم بكل ما يحدث في العالم» .

طريق الاتصال

« وإن قيل ما هي علاقة الانسان بالخالق ؟ فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضاً عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وخلاصة ذلك أن في الكون عقلا فاعلا

وعقلا منفعلا ، فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الإنسان وغير قابل للامتزاج بالمادة ، وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشي ، مثل باقي قوى النفس . وإنما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين».

« ذلك أن العقل المنفعل يميل دائماً للاتحاد بالعقل الفاعل كما أن القوة تقتضي مادة تنفذ فيها . والمادة تقتضي شكلا توضع به وأول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل المكتسب ، ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً أشد من هذا ، فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الأزلي ، ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابي الذي تقدم ذكره . فإنما وظيفة العقل الاكتسابي إيصاله إلى حرم الخالق الأزلي ، دون أن يدغمه به ، وأما ادغامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم إلا بطريق (العلم)» .

فالعلم إذاً هو سبب (الاتصال) بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق ، ومتى اتصل الإنسان بالله صار مثله عارفاً بكل شيء في الكون ، ولم يعد يفوته شيء ، ولكن كيف يتصل الإنسان بالله ؟

« يتصل به بأن ينقطع إلى الدرس والبحث والتنقيب

ويخـرق بنظره حجب الأسـرار التي تكتنف الكون ، فـإنه متى خرق هذا الحجاب وقف على كنـه الأمور ووجـد نفسه وجهـا لوجه أمام الحقيقة الأبدية » .

أما المتصوفة فإنهم يقـولون : إن هـذا (الاتصال) يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد ، وليس العلم ضروريا له .

« وبناء على ذلك تكون فلسفـة صاحب التـرجمة عبـارة عن مذهب مادي ، قاعدته العلم ، والكون في رأيـه ـ كما مـر بـك ـ إنما صنـع بقوة مبـادىء قديمـة مستقلة محكومـة بعضهـا ببعض ، وكلها مرتبـطة ارتباطـا مبهما بقـوة عليا ، ومن هـذه المبادىء شيء يستولي على العالم ويضع فيه العقل ، فهو عقل الانسانية وهذا الشيء الذي يسميه عقلا أيضا هو عقـل ثابت لا يتغير ، أي أنه لا يتقدم ولا يتأخر ، لا يزيـد ولا ينقص . والناس يشتركون فيه ويستمـدون منه بكميـات متباينـة ، على أن من كـان منهم أكثر استمـداداً منه كـان أقرب إلى الكمـال والسعادة » .

الخلود

ثم تكلمت الجامعة بعد ما تقـدم عن رأي ابن رشد في

خلود النفس ، فقالت بعد كلام ما نصه :

« قال : إن العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته أنه مستقل ومنفصل عن المادة وغيرها ، غير قابل للفناء والملاشاة . والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الإنسان ، وبناء عليه يكون العقل العام والفاعل خالداً ، والعقل المنفعل فانياً . ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذي هو خالد في رأي ابن رشد ؟ إن هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية ، فالإنسانية إذاً هي خالدة وحدها دون سواها ، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية » اهـ.

كلام فرح أفندي أنطون في الجامعة .

وهاك رد الإمام عليه .

دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين لأستاذ حكيم وفيلسوف عليم[1]

قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد ، ومررت

---

(١) هو الإمام الشيخ محمد عبده لم نصرح باسمه وقتئذٍ .ولكن عرفه كل من قرأ الرد وهذا المقال أول ما نشر منه في المنار .

على ما نقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق ، لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل ، ولم يكن لي قصد إلى النقد ، وإنما أريد أن أستفيد جديداً، لهذا لم يقف نظري لأول وهلة إلا على ما حوته تلك الجملة (الاضطهاد في النصرانية والإسلام) قرأتها بترو ، وانتهيت منها إلى حكم من الجامعة يخالف ما أعتقد ، ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية . عند ذلك تحركت نفسي إلى كتابة سطور ، أشير فيها إلى كشف مستور ، أو إعادة ذكر مشهور ، على أسماع الجمهور .

لاقاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر في نفسه أشد ، ولسانه في العتب أحد ، وذكر أشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ، ولفتني إلى إعادة النظر فيها . رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان مني الكلام عليهما ، وبأن أحادث الجامعة فيهما .

لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها من المجلات التي لا يعني كاتبوها إلا ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء ـ لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجلات التي

لـو أهملت مباحثهـا من إنعام النـظر ، وجعلتها في جـانب عما نستحقه من النقد لبخستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها .

لهـذا رأيت أن أذكر لهـا مـا رأيت في ذينـك المـوضعـين وأبـين حقيقة الأمـر في الثالث . أمـا الموضعـان فهما (فلسفـة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و(فلسفة ابن رشـد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخـالق ، وطريق اتصـال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود

قالت الجامعة : « فلسفة المتكلمين هذه (أي في وجـود العالم) مبنية على أمرين : الأول حدوث المادة في الكون ، أي وجودها بخلق خالق . والثاني وجود خالق مـطلق التصرف في الكـون ، ومنفصل عنـه ومدبـر لـه . وبمـا أن الخـالق مـطلق التصـرف في كـونـه فـلا تسـأل إذاً عن السبب إذا حـدث في الكـون شيء لأن الخـالق نفسـه هـو السبب وليس من سبب سـواه ، إذاً فلا يلزم عن ذلـك قطعيـاً أن يكون بـين حوادث الكون روابط وعلائق ، كأن ينتج بعضهـا عن بعض لأن هذه الحوادث تحدث بـأمر الخـالق وحده . وفي الإمكـان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن ، وذلك بقدرة هـذا

الخالق » ثم ذكرت في الجملة التي تلي ما تقدم أن هذه فوضى ، وأن روحاً جديداً أخذ يدخل شيئاً من النظام فيها(١) .

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق ، فإن الخلق في اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الالهي . فارسطو يقول : إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها ، وهو الواجب . وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ما سيأتي بيانه ، وإن كان لا أول لوجودها . وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة ، بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي إليها سلسلة من جانب الماضي ، ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية ، وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم إنه أراد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من

---

(١) ذكرت الجامعة أن منبع هذا الروح النظامي في مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذي يقتبسه من دروس الاستاذ الامام كبير رجال النهضة الاسلامية الحاضرة .

المسيحيين واليهود أيضاً ، فلم يخالف فيه مليٌّ من أهل الملل الثلاث .

أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن ، أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأي آخر، بل هو الذي يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن[1] فإن كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين .

الأصل الثاني ـ وهو وجود خالق مطلق التصرف ـ لازم للأصل الأول ، لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فموجده هو خالقه وهو مطلق التصرف بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق ، والمتكلمون ، وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار ، انقسموا إلى فريقين عظيمين ، فالقدرية منهم ـ ويسمون بالمعتزلة أيضاً ـ قالوا : إن الخالق وضع للكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين ، وأودع في المخلوقين قوى أو قدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار . فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار

(١) وقد أشار إليه في الكلام على طبيعة الاسلام في التمهيد للاصل الأول من أصوله ص ٤٨ .

لمصادرها ، أو تأثير قدر المخلوقين في أفعالهم . وقد بقي من أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الامامية والزيدية فإنهم لا يخالفون المعتزلة في هذه الأصول ، فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له - وإنْ كانت جميع الأسباب تنتهي إلى مصدرها الأول وهو الخالق - كما يسأل الفيلسوف بلا فرق .

والفريق الآخر الذي عنته الجامعة ، وهو الذي يرى اسناد الآثار إلى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها ، بل قال : إن الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب ، فلا يقال : إن الأكل - مثلا - هو الذي يحدث الشبع ، بل الشبع شيء يحدثه الله عند الأكل ولكنه لا يحدثه عند الخوى ، إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه . وحمل هذا الفريق على القول بانكار نسبة الايجاد ومنح الوجود إلى شيء سوى واجب الوجود . وقالوا في الأفعال الاختيارية : إن الله يوجدها عند تعلق كسب العبد بها . ولهم في تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه[1] .

---

(١) المراد بهذا الفريق الاشعرية وهم الفريق الأكبر من المتكلمين .

وقالوا : إن الأسباب والآلات لا بد منها في صدور الأثر ، إلا أن الذي يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام يعتمد التمكن من الاتيان بالمكلف به من حيث حال المكلف ، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه غير أنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادية ، لأنه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها ولقبوا ما يحدث في العالم مخالفاً لها بخارق العادة وليس كل غريب عندهم خارقاً للعادة بل الخارق هو ما لا يدخل في مكنة قوة حادثة ، ولا يقدر على إحداثه إلاّ القادر على مخالفة النظام الذي سنه وهو الله .

هذا الفريق من المتكلمين يستند في إثبات صفة العلم لله تعالى إلى ما في هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم وهل يتأتى هذا الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها ؟ .

كان هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيراً من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث : الحيوان والنبات والمعدن ـ منهم الأئمة الرازيون ، كفخر الدين الرازي ، وأبي بكر الرازي ومحمود الرازي وأمثالهم ومنهم الإمام أبو بكر الباقلاني .

وكيف يتيسر لقائل إنه لا علاقة بين الأسباب والمسببات أن يبرع في فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها في العادة مما هو مصدر لها في بادىء النظر ؟

فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت عليه سنة الله بأن يكون معه ، وإن شئت قلت : سأل عن السبب الذي أصدر الله وجوده عنده ، وهل يمكن أن يقول المتكلم : إنه لا علاقة بين الولد وبين وجود والديه أو بين جودة العمل وعلم العامل ، أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر ؟ هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط ، وإلا لما قرأ واحد منهم كتاباً ، ولا خط في صحيفة سطراً ، لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والإفهام .

فإن شئت أن تقول : إنه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن في فهمه ، فلك أن تقول وأن تنعم النظر ، حتى تفهم مبانيه وأصوله ، وأن تناقش بالدليل الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

القول بنفي الرابطة بين الأسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد في كتابه : إن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل : تحول عن مكانك فيتحول

الجبل[1] يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها إذا أخلص المصلي فيها كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري وليس هذا الدين هو دين الإسلام . دين الإسلام هو الذي جاء في كتابه ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ﴾ الآية ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ الخ ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ وأمثالها ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ الآيات .

فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب في هذا العالم والمسببات . ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على وعث من الخوارق[1] لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل ، وإنما وضع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه ، مهما عظم القال والقيل ، وليس من

---

(١) يشير إلى ما جاء في انجيل لوقا من الباب ١١ : ٢٣ لاني الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم) .

(٢) الوعث ـ بالواو ـ المكان الرخو والأرض اللينة تسيخ فيها الأقدام والحوافر .

الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية ، إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله .

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب ، وأساءوا الظن بالقدر ، وتظاهروا بترك الأسباب في أقوالهم ، وإن كانوا أشد الناس تمسكا بها في رذائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ، ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل . فظن الناظرون في قذائف أفواههم أن هذه الأوهام مما بني عليه اعتقاد أسلافهم ، فلا يغترن بعد ذلك مغتر بما يظن أولئك الناظرون ، ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ .

هذا ما يتعلق برأي الجامعة في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم وننتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه .

فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة وخلق العالم

المادة وخلق العالم

قالت الجامعة « إن المادة ضرب من الإفتراض لا بد منه »

الافتراض يراد به عند الإطلاق الفرض ، وهو في اصطلاح الفلاسفة ما لا وجود له ، والمادة عندهم موجودة ، كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده .

ثم قالت : « وبناء عليه فالعامل الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله ، لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً ، والخالق ينزه عن أن يكون حديثاً » وقالت بعد هذا بسطرين « وهو (أي مذهب ابن رشد) مذهب قريب جدا من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت « أن الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة ، وأن المباشر للتصرف في الكون هو العقل الأول وحده ، وأن السماء كون حي مركب من عدة دوائر ، والعقل الأول في قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة عقل ، أي قوة تعرف بها طريقها » الخ .

أما مسألة نفي الاختيار فقد ذكرت على إبهامها ، وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين ، وليس الأمر في حقيقته كذلك .

يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين : إلهيين ، وماديين ، والأولون فريقان : مشاءون

وإشـراقيون ، واشتهـر أتباع أرسطـو باسم المشـائين ، وأتبـاع أفلاطون باسم الإشراقيين .

وأول مميـز للإلهيـين عن الماديـين : أن الأولين يقـولـون بوجود واجب بريء من المادة والماديات ، وبوجود عقول مجردة عن المـادة وغواشيهـا ، وبأن للواجب علماً بـذاته وبجميـع ما يصـدر عنـه وعن آثـاره ، وأن للعقـول المجـردة عقـلاً وعلماً بذواتها وبمبدئها ، وبما يصدر عنها ، والماديون لا يقولون بشيء من ذلك البتة ، فالتقريب بينهما تقريب بـين النقيضين . وابن رشد من مقرري مذهب أرسطو فهو من الإلهيين .

وتشبيه الفيلسوف لتدبير المكون بتدبير المدينة أكبر دليـل على مفارقة الماديين ، كما يفارق المجرد المادة . وقد شـرطوا في هذا التشبيه أن المدبِّر خـارج عن المدبَّـر ، مفارق لـه منزه عن مخالطته .

وأما العقل الأول فليس كما تقول الجامعة ، فـإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو أول صادر عن الـواجب ، وقـد صـدر عنــه الفلك التـاســع المسمى عنـدهم بــالفلك الأطلس ، ونفس ذلك الفلك تدبر حركـاته الجـزئية ، وعقـل آخر هو العقـل الثاني ، وعن هـذا الثاني صـدر الفلك الثامن

المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية ، وإليه يرجع ما يحدث في عالمها ، ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين ، بل هو مفارق لها ، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ، ولها تعلق بأجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتي بيانه .

والذي حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب وقولهم : إنه واحد من جميع الوجوه ، وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الأول . ولما تعددت وجوه العقل في ذاته والنسبة بينه وبين مصدره وعقله لذاته وعقله لموجده صح أن يصدر عنه متعدد ، ولهم في الاستدلال على حياة الأفلاك مقدمات لا حاجة إلى ذكرها لأن الكلام في تصوير مذهبهم لا في تقريره أو إبطاله .

فالعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ، ولا يغشاها شيء من ظلماتها ، وليس العقل الأول بمدبر الكون ، وإنما هو مصدر الفلك الأطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته ، وهكذا الأمر في كل عقل مع الفلك الذي صدر عنه وتدبير العالم العنصري ، وهو ما دون فلك القمر ،

راجع إلى العقل العاشر ، وهو العقل الفعال .

قال الفلاسفة الإلهيون : ولا يجوز أن تكون لأفعال الله غايات وأغراض تبعثه على إصدارها ، وإن ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الوجود المطلق عن غنى مطلق . وقد صرح ابن رشد في تهذيبه لإلهيات أرسطو بذلك ، وهذا مبالغة منهم في نسبة الكمال إلى الله ، على أن ما يصدر عنه إنما يصدر عن علم ، فالذي ينفى عنه إنما هو الاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها ، وأما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون إكراه عليه ، فذلك لا ينفيه أحد منهم ، والمليون من متكلمين ولاهوتيين وإن لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول إليه والتزموه ، فقد ذهب جمهورهم والمعول على رأيه عند قومه منهم ، إن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلا وأبداً ، وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه وعلمه لازم لذاته أزلي بأزلية ذاته ، وكل ما يكون في الكون لا بد أن يقع على وفاق علمه الأزلي جل شأنه ، فلا تردد عنده بين الغايات ، بل ما يصدر عنه اليوم كان لا بد أن يصدر عنه . والأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في علمه ، فهي تصدر عنه على حسب ترتيبها في العلم .

وسواء كان هذا القول غامضاً أو غير غامض ، وسواء توجه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه ، إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجه . كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفي الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وان ثبت الاختيار بالمعنى الذي يليق بكمال الله تعالى ، فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق في حقيقة المسألة وإن اختلفت العبارات ، فابن رشد رحمه الله لم يخرج في آرائه عن المليين ، فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريباً منه .

طريق الاتصال

يتوهم الناظر في هذا العنوان في الجامعة مع مراعاة الفصل الذي تقدمه فيها أنه عنوان لرأي ابن رشد في طريق اتصال الكون بالخالق ، فإذا استمر في قراءة ما بعد العنوان إلى آخر الفصل علم أن المراد طريق اتصال الإنسان وحده بخالقه : وعثر في آخر البحث على هذه العبارة « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم» وأما ما بين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم في مذهب الفيلسوف .

وإني ذاكر لك رأيه في اتصال الإنسان بالله أي قربه منه وسعادته به ، وفي طريقة تكميله لنفسه ، حتى يستعد لذلك القرب ، وبذلك تعرف أن ما جاء في الجامعة ليس بالذي تصح نسبته إليه ، خصوصاً بعد قولها : إنه أخذ مذهبه في ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وما قاله أرسطو في ذلك الكتاب معروف مشهور .

أثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الإسلام أن نفس الإنسان التي هو بها إنسان ـ وهي ما يلقبونها بالنفس الناطقة ـ جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال في جسم وإنما له علاقة بالجسم يدبره ويصرفه ، وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ، ولهذه النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير .

وقالوا : إن انطباع المحسوسات والمعاني الجزئية في الحواس الظاهرة والباطنة ـ على ما فصلوه ـ يعد النفس لقبول الكليات ويهيؤها لتلقي المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذي سبق لنا ذكره ، وجعلوا مراتب النفس في استحصالها ، كمالها العلمي وبلوغها ذروته أربعاً .

(الأولى) العقل الهيولاني ، وهو قوة استعداد النفس

نحو المعقولات ، وتسميته عقلا تسمية مجازية .

(الثانية) العقل بالملكة ، وهي القوة التي تحصل للنفس عند حصول المعقولات الأولى ، مثل الجزء والكل ومثل الحكم بأن الأول أصغر من الثاني ، ومثل النفي والاثبات ، والحكم بأنهما لا يجتمعان في محمول واحد لموضوع واحد ، وكذلك كل ما خلص من محسوس وهو لا يحتاج في تخليصه إلى فكر ، والنفس تتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات الثانية ، إما بالفكر وإما بالحدس ، وليس الحدس هو الظن كما هو في المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادىء إلى المطالب أو انتقال النفس من المعلومين إلى الوسط الذي يصل بينهما ومن ذلك إلى معلوم ثالث بلا تجشم نظر . ولذلك جعل مقابلا للفكر الذي هو النظر بعينه .

(الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد ، وهي أن تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة في الذهن .

(الرابعة) قوة تسمى « العقل بالفعل » وهي ما به تتمكن النفس من استحضار المعقول المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب .

قالوا : والذي يرقي بالنفس في هذه المراقي هو العقل

الفعال ، وهو ذلك العقل العاشر المصرف للمادة العنصرية لا عقل الإنسانية العام ، كما تقول الجامعة ، فإن أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الإنسانية العام ، بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التي عني أرسطو بإبطالها وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها ، فالعقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهيولاني إلى العقل بالملكة ، ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ومنه إلى العقل بالفعل .

ولما كان العقل الفعال جوهراً عقلياً بالفعل كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل . وأما نفوسنا فهي عقول بالقوة ولكنها إذا استعدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أي بالإقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ، ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لأحكام خاصة ، وإدراك المعاني الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس في المعقولات الأولى والبحث والتجربة والدرس وما ينحو هذا النحو كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات في الموضوعات التي كان الاستعداد فيها . فإذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت إلى جانب الحس أو إلى صورة أخرى غير التي حصلت لها بذلك الاستعداد انمحى المتمثل الذي كان أولا ، كأن المرآة التي كان يحاذي بها

جانب القدس ، قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس ، أو إلى شيء آخر من الأمور القدسية .

قالوا : وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المعقولات له علة ، وعلته قوة بعيدة هي العقل الهيولاني وقوة كاسبة هي العقل بالملكة ، وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل .

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم ، وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد ، منها أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها ، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التي تحصل لها وتصير المعقولات كلها معقولا واحداً بل يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس إليه وهو محال وخلاف الفرض .

ونقلوا عن (فرفوريس) أنه قال : إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال ـ وهو حق في رأيهم ـ ولكنه قال : إن معنى اتصالها

بالعقل الفعال أن تصير هي نفس العقل الفعال لا أنها تصير العقل المستفاد ، والعقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء - وهو مجرد لا يتجزأ - أو تتصل به النفس اتصالا واحداً تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول ، وهو ليس بحاصل في جميع الأحوال. وقالوا : إن دعوى اتحاد شيء بشيء آخر - على معنى استحالة الأول إلى الثاني - قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها ، وأما استحالة النفس إلى العقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام ، كما عرفته الجامعة بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الأعلى ، فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطلع ذلك النور الأجلى ، فهل مع هذا يصح أن ينسب إلى الفيلسوف ما عده غير معقول ؟

قال الفيلسوف وشيعته : إن النفس الناطقة التي هي موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به ، بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم فإذا استحال الجسم عن أن

يكـون آلة لهـا وحافـظاً للعلاقـة معهـا بـالموت لم يضـر ذلـك جوهرها بل تكون باقية بما هي مستفيـدة الوجـود من الجواهـر العقلية ، فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية عـلى استقلالها لا تعدم شخصيتها بـالفناء في شيء سـواها ، لا عقـل فعال ولا وجـود واجب ، وهي تسعـد بكمـالها العلمي والأدبي الـذي حصلتـه مدة تعلقهـا بالبـدن . وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعـد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيـل فيه مـا هو لـذة لها . وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها فـالنفس عند الفيلسـوف بـاقية خـالدة ، خلودهـا خلود لشخصها المميـز من كل شيء سواها ، سواء كان عقلا فعالا أو غيره .

فهـل بعد هـذا يعد الفيلسـوف ماديا ومذهبـه مـذهبـاً ماديا ، قاعدتـه العلم ؟ لا بل هـو إلهي ومذهبـه مذهب إلهي قاعدته العلم قائل بخلود النفس وسعادتهـا وشقائهـا وعذابهـا ونعيمها كما رأيت .

ما نقله فلاسفة أوروبا عن ابن رشد

بقي علينـا أن نشـير إلى مـا نقله فـلاسفـة أوروبـا عن الفيلسوف الجليل ابن رشـد في مبدأ العـالم ومصدر وجـوده . قالوا : لم يكن يعـرف العلم والفلسفة عنـد الأوروبيين إلا في

مـدارس المسلمين في أسبـانيـا ، فكـان يقصـد تلك المـدارس طـلاب للعلم من كل نـاحية كـان يجلس في درس الفيلسوف عدد عظيم . لم تأت نهاية القـرن الثاني عشـر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأي زعزع طمـأنينة الكنيسة وأفزع القـابضين عـلى مفاتيـح القلوب بذلـك الوقت الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاءوا من العقائـد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنهـا ما شـاءوا ذلك الـرأي الذي أخـذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو أن الكون أجمع يـرجع في وجوده إلى واحد هـو حياة الكـل وهو روح يقـوم به كـل جزء منـه . وقالـوا : إن الذي نشـر هذا المـذهب بـين النـاس هم تـلاميذ ابن رشـد . ففهم بعض علمائهم أن ابن رشـد كـان يقول : إن مبدأ العالم هو أصـل عرضت لـه صور العـالم ، أو روح ظهر في مظاهـر الكائنـات ، كما يقـول الصوفيـة أو نحو ذلك واستتبع هـذا رأيا آخـر ، وهو أن كـل صورة من صـور المـوجودات إذا بـطلت فـإنمـا تعـود إلى أصلهـا وهـو الـوجـود المطلق. وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسـام ، إلى مشرقها العام وتفقد امتيازها فيـه ، وذلك كله ـ وإن ذهب إليـه بعض النظار من الأوروبيـين ـ غير مـا يقول ابن رشد ، وأما ما يقول ابن رشد فهو ما ترى :

قال ابن رشد ـ وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا في ذلك أرسطو ـ : إن الممكن لا وجود له في ذاته وإنما يستفيد الوجود من غيره ، وقد قالوا إن جميع ما في الكون ما عدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن ، فكل ما في العالم فهو مستفيد الوجود من غيره ، فذلك الغير إن كان ممكناً فكيف يعطي الوجود ، وهو لا وجود له إلا من غيره ؟ فإذا استمد منه مستمد فإنما يستمد من فضل ذلك الوجود الذي جاءه من موجده إلى أن ينتهي إلى الوجود الأول فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود إلا من وجوده ، أو كل وجود فهو شعاع لضياء وجوده ، فإذا حرر المعنى من هذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع إلى ما قاله السيد الشريف من أئمة أهل السنة وغيره وهو :

« إن الممكن ليس بشيء في ذاته ثم يكون شيئاً بالإيجاد والإيجاد لو حققته أمر اعتباري انتزاعي ، له منشأ في الواقع ، وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الموجود الممكن التي صارت شيئاً بتلك العلاقات الاعتبارية بينها وبين موجدها ، وهي ما يسمونه تعلق القدرة بالمقدور ، وماهية الممكن ليست بوجود ولا الوجود أمر موجود قائم بها . فإذاً ليس من وجود

في نفس الأمر إلا وجود الواجب ، فكان الوجود الحقيقي واحداً وسائر ما يسمى وجوداً أو موجوداً فإنما ينال ذلك بالاضافة إلى الوجود الحقيقي . وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن تكون حقيقية » .

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن المادة والمدة ، إلا أن من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذيوله رأي القائلين بأن الموجد الأول روح سار في العالم وإليه يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه ، وما هو برأي ابن رشد ولا يعرفه .

على أن الصوفية ـ وهم المصرحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولا والفناء آخراً ، الناطقون في ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم ـ لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالا حقيقيا ، بل قالوا : إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان ، ولكنها تسعد في خلودها ، باستغراقها في شهودها ، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها ، فهي غنية بعرفانه عن معرفتها بنفسها . وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذته ، وهو معنى تقصر دون ايضاحه العبارات ، وإن كفى في تعريفه لأهله أخفى الاشارات .

ولعل الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب ، وفيما

أجـاب به من طلب ، فقـد وفى حقاً لهـا لو أغفله مـع علمها بالقدرة عليه ، لحق لها أن توجه العتب إليه .

هذا ما أردنا إيجاز القول فيه متعلقاً بفلسفة المتكلمين ، ورأي الفيلسوف وستتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجـامعة . من الكلام على الاضطهاد في النصرانية والاسلام ، إن شاء الله تعالى أ هـ .

﴿ تم المقال والحمد لله ﴾

تأثير هذا المقال وتقريظه

يقول جامـع هذا الكتـاب وناشـره : كتب هذا الإمـام الكبير مقاله في أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ، ولقد كان لنشره من التـأثير في عـالم العلم والدين ، ما لم نره لكلام أحد من الكـاتبين ، طـارت به اغتبـاطاً قلوب المسلمين ولم يبخسه حقـه فضلاء المسيحيـين ، ورددت صداه المنعكس عن المنـار ، بعض الجـرائد في مصـر وغيـرهـا من الأقطار .

قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعدمـا ذكرت انتقاد الجامعة في عدد ١٣ : ٢١ .

« فهب المنار الأغر ينشر بالتوالي رداً مفحماً طويل الأذيال لإمام تغني كنيته عن التصريح باسمه . ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى . ولا يزال المؤيد الأغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها ، والرد كما قلنا قوي الحجج ، متين العبارة ، لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أو حديث » اهـ المراد منه .

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين ، بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقد طالعنا رده في مجلة المنار ، ورأينا في قسم الرد الثاني ـ أي الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم ـ حججاً حرية بالاعتبار ، ورأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحي على رأي إمام مسلم عصري في المسيحية فاخترنا نقله » .

ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا . وقد رأينا في آخر عدد وصل إلينا منها مقالة وجيزة لأديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال « رد عليها الرجل الإسلامي العصري بل رجل الاسلام في هذا الزمان رداً أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة ،

فيستطاع أن يقال : إن انتصار العلم في أوروبا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلامية تساهلا ، ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم في أوروبا إلى أسبابه الحقيقية فهل أصاب صاحب الجامعة في جعل تساهل المسيحية سبباً لانتصار العلم في أوروبا ؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل ، اضطهدت العلم اضطهاداً ، فالجواب « كلا لم يصب صاحب الجامعة » ثم ذكر الكاتب : أن سبب القوة والعلم في أوروبا يرجع إلى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها الخ .

وكتب إلينا عالم مسيحي من سورية - تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق (هو الأستاذ جبر ضومط) الشهير ما نصه :

« ما أسمى ما كتب الإمام في العددين الأخيرين من المنار يحق لنا أن يفتخر به المسلمون والنصارى معاً ، لا تحصروا الفخر فيكم أيها المسلمون ، بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانتي الكاثوليكي في انجلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا » .

وكتب إلينا غيره بمعنى ذلك ، وإن كان بعضهم انتقد

بعض ما كتب في النصرانية وقال : إن تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحي نفسه . ونحن المسلمون نقول بذلك ، نقول : إن الصورة التي انقلبت إليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ما تقدم ، ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك .

وأما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ، ولم يرض باعتذارنا عنه ، بل أصر على طعنه بالإسلام ، وأضاف إليه الطعن بنا وبالإمام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة ، ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة ، فنعلم هل هي مصرة على الخصام ؟ أم ثابت إلى الوفاق والوئام ، والذي هو أولى بها في دار الإسلام ؟

الجواب عن هذا الاستفهام

إن فرج أفندي أنطون صاحب الجامعة انقطع عن إصدار مجلته وعن كل عمل زمناً طويلا ألف فيه كتابا في فلسفة ابن رشد للرد على الإمام ، ظن أنه يكون مصدر ثروة له وشهرة يعد بها من أقران الإمام، فكان سبباً لزيادة سقوط قيمته العلمية والأدبية ، ورددنا عليه في المنار رداً أظهرنا فيه جهله فيما كتب وخطأه فيما نقل ، وكانت عاقبة ذلك أن

بطلت مجلة الجامعة ، فلم يعد يقرأها أحد واشتغل آخر عمره بتأليف القصص التمثيلية ، فكانت أولى به من الاشتغال بالفلسفة الالهية والمادية ، وكل ميسر لما خلق له .

ونختم هذا التقريظ بأبيات ، أبيّات من نظم أحمد أفندي الكاشف الشاعر المشهور بالإجادة يقرظ بها المقال مخاطباً لكاتبه وهي :

سلاماً حجة الاسلام فينا
ورضواناً رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا
يؤيد وحي ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكاناً
يرى فيه المزاعم والظنونا
فيا بطل يخوض الحرب فرداً
فيا يدعو بآخر مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدي
بمهجته المواطن أن تهونا
بابقى منك آثاراً وذكراً
وقدراً في قلوب العالمينا

وكــان يـراعــك المنصــور سيفــاً
وكــان كتـابـك الـدرع الحصينـا
مـلكت بــه معَــاقــل عــاليــات
نبت عـنهــا سيــوف الـفــاتحيـنـا
ومــا ضــر الـضــلال الخلق حتى
نـفعتهـم ، وأوضحـت اليـقـينـا
فــرفقــا بــالمكــابــر قــد كـفــاه
مجــادلــة وأوشــك أن يــديــنــا
ودعــه في تــأمــلـه ، عــســاه
يجيئــك بــاعتــراف المـهتــديـنــا
فلو سلكت ملوك الشــرق يــومــاً
سلوكــك بـيـننــا دنـيــا ودينــا
تمــادى الحق متبـعــاً مصــونــاً
وقــام المــلك ممــتــداً أمــيــنــا
وعــاش التــاج مؤتـلقــاً رهيبــاً
ودام الـعــرش مـعـتــزاً متـيـنــا
ومثـلك لــو تحكــم مــستــبـداً
فقــد مــلأ الضمــائــر والعيــونــا

انتهى

فهرس الكتاب

القسم الأول في النصرانية